أمريكا التي رأيت

د.ليلى حمدان

الكاتب

د. ليلى حمدان كاتبة فلسطينية، نشأت وترعرعت في ديار الهجرة بين بلاد العرب والغرب، حاصلة على درجة الماجستير في الطب، لكن هذا لم يمنعها من الانشغال بطلب العلم الشرعي والدعوة والأدب والإعلام والكتابة في قضايا الأمة المسلمة.

عملت في مجال الدعوة في الغرب، وكان لها نشاط في إلقاء المحاضرات في المساجد وتعليم أبناء الجالية المسلمة أصول دينهم وعقيدتهم، وكذا لغتهم العربية.

عملت في مجال الدعوة على الإنترنت للإشراف والعضوية في منتديات لطلب العلم والدعوة. وحاصلة على دورات في التسويق والتحرير الصحفي، وكذا التصميم الدعائي... حاليًا كاتبة في موقع تبيان.

إهداء...

إلى تلك الروح التى أحلق معها ممتنة عند كل لحظة عطاء.

الفهرس

الكاتب..... ١

الفهرس..... ٣

أمريكا التي رأيت بين تجربتي الأربعينيات والألفية الثانية..... ٦

لماذا أمريكا؟..... ١٤

أمريكا التي رأيت: اللقاء الأول وصدمة الحقيقة..... ٢٢

القوة الأمريكية في ميزان الحضارات..... ٢٩

نظرة على الشخصية الأمريكية..... ٣٣

مشاهدات من واقع الأسرة والمجتمع الأمريكي..... ٣٩

الدين في حياة الأمريكي..... ٤٤

الدين في حياة الرؤساء والقادة الأمريكيين..... ٥٠

اليهود في أمريكا..... ٥٦

المعيشة في أمريكا: الغايات والمآلات..... ٦٠

المسلمون في أمريكا بين ناري الفرقة والغربة..... ٦٥

تجربتي مع المدارس الإسلامية في أمريكا..... ٧٠

القوة العسكرية لأمريكا..... ٧٧

الحروب التي خاضتها أمريكا..... ٨٢

أمريكا وقضية السلام في فلسطين..... ٨٨

شخصية الرجل الأبيض: ترامب نموذجًا..... ٩٣

الولايات المتحدة والنظام الدولي..... ٩٩

الدولار الأمريكي والرأسمالية والإمبريالية العالمية..... ١٠٨

يوم كانت أمريكا تدفع الجزية للمسلمين..... ١١٤

خلاصات ودروس تعلمتها من أمريكا التي رأيت..... ١١٨

خاتمة المشهد الحقيقي لأمريكا التي رأيت..... ١٢٥
المصادر..... ١٣٠

هذا الكتاب من إنتاج ورعاية

أمريكا التي رأيت بين تجربتي الأربعينيات والألفية الثانية

إنه لمثير للإعجاب ذلك التشـخيص الدقيق والنظرة العميقة والدراسـة المتأنية المتينة التي عرض بها سيد قطب خلاصة ملاحظاته وتحليلاته لواقع أمريكا وتفاصيله، والتي ستصادفنا بلا شك بين فصول صـفحات كتاباته الثرية تحت عناوين مختلفة، أين نِثر الرجل الذي مات شـنقًا لتعيش كلماته خالدات وتساهم في انبعاث أمة تشقى، ترزأ تحت ركام الاستضعاف والهيمنة والانهزامية للغرب الكافر، ولا زالت تنشد الخلاص؟

نثر من عبق فهمه الرصين بحسب ما يقتضيه المقام والمقال مع كل ما يتعلق بـ«الظاهرة الأمريكية» و«الهيمنة الأمريكية»، ولأن الموضوع مصيري واحتل مساحة كبيرة من اهتمام سيد قطب، كان قمينًا بصاحب التنظير والتطبيق أن يجمع كل هذا النتاج الفكري والعملي الضخم في سفر زاخر حمل عنوان «أمريكا التي رأيت»، لكنه الكتاب الذي لم يكتب له الله أن يرى النور، ولم يصل لأسماعنا ولا أبصارنا بعد أن طوي في رفوف التغييب، ما يعد خسارة حقيقية.

بين الفكرين

ثم بالنظر لمنهجية العرض وأسس البناء التي يتناول في كل مرة فيها سيد قطب الحديث عن أمريكا، تجعل من مقالاته وأفكاره الرائدة تراثًا فكريًا غنيًا بالحقائق التي يجدر بنا تأملها والاستفادة منها؛ لفهم واقعنا اليوم وإدراك البون الشاسع بين فكر يمجد ما يصفه بعضهم بـ«فردوس العصر» أمريكا ويستعظمها كقوة لا تقهر في الأرض.

وبين فكر يبصرها بنظارة الحقيقة كـ«هبل العصر»، أو الإمبراطورية الكافرة التي تقوم على الغرور والكبر والصلف والعنجهية والغطرسة. مصيرها لا يتعدى مصير كل دول الكفر على طول محور التاريخ، إنه ذات مصير «الأفول والاندثار»، كما نظّر لذلك ابن خلدون في مقدمته الشهيرة.

متانة البناء

ولكن ما شد انتباهي بحق في دراسة سيد قطب ليس تلك الدرجة من الصحة التي اتسمت بها خلاصاته، ودقة موائمتها لواقع أمريكا في نهاية الأربعينيات حينما كتب أفكاره؛ التي تبلورت من معايشته الحيّة للواقع الأمريكي على امتداد سنتين فقط من إقامته في أمريكا، ولكن بالأحرى درجة تواؤم خلاصاته لواقع أمريكا اليوم ونحن في الألفية الثانية، وصلاحية وصفه لهذا الواقع بعد كل هذه السنين التي مرت.

وهو ما يؤكد بأن دراسة قطب أضحت بمثابة القاعدة السليمة وبنية المفاهيم القويمة التي يمكن لأي باحث أو مفكر أن يستند إليها إذا ما أراد أن يتعرف على الأمة الأمريكية ما وراء الأطلسي، وإذا ما كان يريد فهم طبيعة الصراع الغربي الإسلامي ومآلته تحت وطأة هيمنة «أمريكية» ليست عسكرية ومادية فحسب، بل أيضًا فكرية وسياسية.

ثمرات المعايشة الحيّة

المفاهيم لا تترسخ في قراراتنا بمجرد القراءة أو المذاكرة كما تترسخ بالمشاهدة الحية والمعايشة العميقة، ولأن التجارب تصقل الإنسان وتحفر فيه القناعات التي لا تتزعزع إلا بضربات الحقيقة التي تثبت غير ذلك، أو على الأقل تدفعه لتغيير بعض نتائجه التي وصل إليها، مع طول الملازمة، فمعايشتي للواقع الأمريكي كطالبة جامعية ومقيمة لسنوات طويلة في أرض الهنود الحمر-السكان الأصليين الذين أبيدوا بأبشع ما يكون على أيدي الرجال البيض النصارى المهاجرين من أوروبا إلى الأرض المكتشفة أمريكا-.

كل هذا وأكثر يؤزني أزًا لأن ألخص دراستي الشخصية لواقع مستعر بالحقائق الصادمة والشهادات المؤثرة التي عايشتها بنفسي، وحللتها تحت ضوء أنوار شريعتنا الإسلامية الغراء، وخلصت إلى أنها تنبض بنفس نبض سيد قطب، وتبصر بنفس نظارته للحقيقة.

غياب ذلك الكتاب

ولأن تراث سيد قطب الفكري في هذا الباب غُيِّب حين غاب كتابه «أمريكا التي رأيت»، كان تتبع بقايا ميراثه في ثنايا المجلات القديمة وعلى رفوف المكتبات الكئيبة، يعد مهمة شاقة لكثير من المسلمين - فضلًا عن الباحثين-، في وقت تزداد الحاجة إليه لاتساع الشريحة المفتونة بأمريكا وحضارتها وقوتها مع جهل كبير-في ذات الوقت- بنقاط ضعفها وفسادها وتناقضاتها.

خاصة، وقد ترسخت عادات جاهلية في مجتمعاتنا على طول خط الانحراف؛ الذي ضرب بنيان هذه الأمة وامتد منذ العصر الأموي مرورًا بسقوط الدولة العثمانية، واندثار مشروع الخلافة الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى.

ثم اشتداد أدوار الهيمنة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية إلى يومنا هذا الذي أصبح فيه اسم دولة «إسرائيل» في أرض الإسراء والمعراج لا يعني شيئًا عظيمًا، بل يدفع بالتسابق المحموم لتحقيق التطبيع مع اليهود المذموم من حكومات زعمت يومًا ما المقاطعة لكل ما يتصل بالصهيونية، وكذا تمدد

الأذرع الأمريكية كالأخطبوط لكل زاوية في عالمنا الإسلامي وكل ما هو إسلامي، فقد أضحينا نشاهد المنبهرين بثقافة أمريكا يتقلدون أوسمة الاحترام والتقدير، ويضطهد كل من يحتقر أمريكا أو يوصم بالجهل والتخلف والرجعية، وربما الإرهاب!

تصحيح موازين القياس

وللأسف فإن الميزان الذي نزن به القيمة الحقيقية لأية حضارة -في عصرنا الحالي- لم يتعدَ الميزان المادي البحت. وتحت تأثير سلطة الثقافة الغالبة، مما يجعل من الجانب الإنساني مجرد طيف يتراءى عند الصدمات النفسية التي تظهر بين الحين والآخر، لتكشف لنا حقيقة بشاعة الحضارة الأمريكية وثقافتها المهترئة.

ذلك أن الجانب المادي هو في حقيقته وسيلة لتحقيق القيم التي نؤمن بها كبشر، فكلما ارتقت قيمنا الروحية كلما كان تسخير الجانب المادي لصالح البشرية، وكلما كان العكس أصبح ذلك التسخير لتدمير البشرية.

فالقيمة هي الغاية وليس الوسيلة، لهذا بدل أن نفتتن بقدرات أمريكا المادية ومخترعاتها التقنية وأسلحة دمارها الشامل، دعونا ننظر في غاياتها ومنطلقاتها، كي نستطيع أن نقيّم بالفعل حضارة أمريكا الحقيقية.

لنلقِ نظرة لحجم الدمار الذي صنعته أمريكا في الأرض، لعدد الأبرياء الذين سحقتهم بأسلحتها المدمرة، لحجم الاستنزاف لخيرات ومقدرات الشعوب بغير وجه حق. فوظفت قواها المادية والتقنية والعلمية لهدر كرامة الإنسان على العكس التام من حضارة الإسلام الماجدة التي تعد الحضارة الوحيدة التي عرف معها البشر الرقي على أعلى سلم في مستويات العطاء والنبل والعدل.

ثم دعونا نطوِ هذه التفاسير العقلية والحجج المنطقية، ولننظر في الوحي القرآني كيف يلخص لنا بشكل عجيب حقيقة أمريكا، ولسنا بحاجة لسرد كل الآيات التي تتناول هذا التشخيص العميق لحال دولة عظمى كافرة مهيمنة في عصرنا الحالي، بل تكفي آية واحدة لتقدم لنا الجواب الوافي على سر قوة أمريكا؛ التي ينبهر بها قومنا، والتي تنذر بالنهايات البائسة والتعيسة -بلا شك- حين قال -تعالى- في كتابه العزيز:(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ)

الفرق في قراءاتنا للواقع

يتجلى هنا الفرق بين قراءة الواقع بخلفية مدركة واعية بالسنن الإلهية، تسندها نصوص الوحي، وخلاصات العلماء، والتجارب التاريخية، وبين خلفية غارقة في سلطة الثقافة الغالبة، لا تقوى على الخروج من مستنقعها؛ لشدة انغماسها فيه.

ويصف هذه الحالة ابن خلدون في الفصل الثالث والعشرين من مقدمته حينما يقول: "إن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب: في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده؛ والسبب في ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال في مَن غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب.

فإذا غالطت بذلك، واتصل لها اعتقادًا؛ فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به... حتى أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغالب عليها: فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير."

وهذا بلا شك يقدم لنا جزءًا من تشخيص مرير لحال أبناء الأمة المسلمة اليوم في ظل صراع بات يطحن كل ما يتعلق بالقيم الإنسانية والأخلاقية والأدبية بلا رحمة ولا هوادة وبسرعة تدعو للترقب والوجل.

ولو أن هؤلاء المنبهرين بثقافة الأمريكيين تعمقوا في الجانب الكالح لهذه الثقافة بالنظر في إحصائيات جرائم القتل والتحرش وتجارة المخدرات والفاحشة والفساد الذي ضرب بجميع الأسس الاجتماعية والاقتصادية، تثبته تلك التقارير التي تعرض النسب الصارخة لتصاعد كل المنحنيات التي تعكس درجة انهيار المنظومة الأخلاقية في الأمة الواحدة، لأدركوا أن القيمة الحقيقية لأي أمة من الأمم هي في مبادئها وممارستها الأخلاقية، لا مخرجاتها المادية فقط.

أهمية الطرح

وما يجعل هذا الطرح على درجة من الأهمية هو تنامي المد العلماني في بلاد المسلمين، وتبني جانب كبير من العلمانيين العرب -كما الأعاجم الآن- نفس التوجهات الأمريكية بالنسبة للإسلام والعالم الإسلامي، ومحاولة، بل السعي الجاد، لفرضها على الشعوب المسلمة بالتدرج الماكر تارة، وبالصدمات اللئيمة تارة أخرى. والنتيجة حركة تغريب قوية يخضع لها العالم الإسلامي، وهي الهدف الثاني الأكثر أهمية بعد النجاح في إسقاط مشروع الخلافة الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى.

وفي الواقع، لا يتعلق الأمر كثيرًا بما تقتضيه الموضوعية الفكرية أو انعكاسات التطوير الفكري للآراء والمذاهب الفلسفية؛ لكي تتواءم مع متطلبات حركة التغريب ومتغيرات الواقع الحديث، إنما الأمر يتعلق بشكل أدق بقوم رأوا في الانتماء للعلمانية والديمقراطية السبيل الوحيد لتحقيق ذواتهم وأهدافهم الدنيوية.

فلا نعجب للسرعة التي كسب فيها هؤلاء الشهرة والصيت الواسع وحازوا على أعلى المناصب في أجهزة الثقافة والإعلام والتعليم وغيرها من ميادين مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمُرَكِّبات هذه الأمة، يدعون للحرية والتحرر من الروابط الدينية وفصل الدين عن الدولة، وأيضًا محاربة الحركة الإسلامية بحجة التطرف والإرهاب، في حين تنغمس أقدامهم في مستنقعات الانبهار بثقافة الغرب والتبعية والانهزامية؛ وإن تظاهروا بغير ذلك.

تيار الصحوة الإسلامية

وقد واجه هذا التيارَ تيارٌ آخرُ أكثرُ دراية بمكونات هذه الأمة وبمقوماتها، يدفع باتجاه تحقيق صحوة إسلامية جديدة، لا شك أن سبيلها الوحيد لإحراز النصر هو السبيل الذي يحصل فيه الصدام بين الرؤية الإسلامية للوجود، التي تضع بعين الاعتبار تلبية الحاجات الإنسانية الدنيوية المادية والروحية بالنظر إلى تحقيقها بهدف الفوز في الآخرة، وبين الرؤية المادية البرجماتية الغربية عمومًا والأمريكية خصوصًا.

تلك الرؤية التي تنبني على الأسس المادية البحتة والمصلحة الشخصية والمنفعة واللذة واللهث خلف الشهوات، والعاجزة تمامًا عن الإجابة عن الأسئلة المصيرية للوجود، وهنا تبرز نقطة الفارق الكبير بين المسلمين والغرب الكافر، وتكشف درجة الضعف الذي تعاني منه المجتمعات الغربية من تأخر وتخلف على مستوى الروح!

ورغم ذلك، فإن هذا الاستقطاب الغربي المادي والشهواني قد جذب شريحة كبيرة من أبناء الأمة بعد عقود طويلة من الضخ والحقن والتخدير والتضليل والتمييع، وكل وسيلة مباشرة وغير مباشرة هدفها في الأخير التغريب الحقيقي لأبناء الأمة المحمدية.

ولأن السنن قد خطت لنا مصير هذه الحقائق، فإن هؤلاء العلمانيين والديمقراطيين سيكونون العداء الألدّ للفكرة الإسلامية ولمن يحملون مهمة الدعوة إليها والجهاد؛ ما يدفعنا بشدة لضرورة دراسة الظاهرة الأمريكية وفهمها بكل تفاصيلها، ثم ضخ هذه المفاهيم لأبناء الأمة الإسلامية كي نواجه مد التغريب بمد دعوة أصيل لا يهزم.

سنن تتحقق ومسلك النجاة ينفتح

ثم بالنظر في خط تطور حركة العلمانية في عالمنا الإسلامي، والتي أصبحت أداة التغريب الأولى التي تتسلل تدريجيًا لتحدث التغيير المنشود من الغرب، فإن النتائج التي لا مناص منها هي أن دعاة هذا التقارب بين الإسلام والعلمانية سينضمون في نهاية المطاف إلى معسكر الغرب بقيادة أمريكا.

ولأجل تحقيق هذا الانسلاخ التام، كان لا بد من حرب على الإرهاب وحرب على المناهج الدينية والتيارات الدعوية. ومؤخرًا، بتنا نراه تدخلًا سافرًا حتى في التقاليد الإسلامية والتراث الاجتماعي. إن ما يدعونا لتعميق النظر في أسباب هذه الهزيمة النفسية للثقافة والقوة الأمريكية هو أننا بتنا نشاهد نتائج الجهود لكل دعاة هذا التيار، والتي باتت تهدد مركز الأمة الإسلامية في بلاد الحرمين.

وبات جليًا أن في كل عصر لدينا رفاعة طهطاوي جديد، وجمال الدين الأفغاني جديد، وظيفتهم تأويل المعطيات الشرعية لتوافق الغايات الأمريكية عبر آلية حقن اللفظ التراثي بالمضمون الغربي تمهيدًا لتبيئته، كما فصل ذلك تفصيلًا لائقًا الشيخ إبراهيم السكران في كتابه سلطة الثقافة الغالبة. وللأسف، فقد نجح هؤلاء الدعاة في زرع مركب النقص في أبناء الأمة الإسلامية حتى لا يقوم لهذه الأمة قائمة، ولا تشهد يومًا نهضة حسبما شخص مالك ابن نبي بدقة. ولتستمر في الكمون تحت قمع الحكام المستبدين والمجرمين تُسَاس كما تساس الأنعام، في حين أننا مطالَبون بالعودة إلى مثاليات الإسلام الأولى التي قام عليها ذلك الجيل المتفرد من الصحابة، والذي تميز بخصائص حققت الوجود الإسلامي في العالم، ليس بانبهارها بالإمبراطوريات الكافرة المجاورة والمهيمنة آنذاك، بل باستنادها على مفاهيم راسخة من القرآن والسنة.

من صدق الإيمان، والجدية في أخذ هذا الكتاب بقوة، من صدق الجهاد في سبيل الله، وتحقيق معنى الأمة الواحدة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، من سعي لإقامة العدل لله لا في سبيل حظوظ نفس أو استبداد أو قمع، من تقديم تلك الصورة الفاخرة لأخلاقيات الموحدين التي تعكس روعة الأثر والسلوك الذي حفره الإسلام في النفوس المؤمنة، ثم ذلك الحفظ للغزل الذي لا يكون إلا بحفظ البيعة لله وللرسول وحفظ الأمانات وحفظ للعهد.

الهدف الأهم

إننا اليوم بحاجة لأن ننتشل هذه الأمة من الحضيض لنصعد بها من جديد إلى القمة الشامخة بقوة مذهلة تمامًا كما أذهلتنا قوة السقوط التي عرفتها هذه الأمة منذ انقادت للهيمنة الغربية، وعلى رأسها

الأمريكية. إننا بحاجة لوضـع حد نهائي لذلك التفلت البشـري من التكاليف الذي امتد على طول الزمان، وتسخير جميع القوى لإعادة ترسيخ المفاهيم السليمة لهذا الدين، بالحجم المطلوب كمًا وكيفًا.

والذي لن يؤتي أكله إلا بعودة كاملة لدين الله العظيم، حين تقفز النفوس من هامش النسـيان إلى قلب الحركة والأحداث تسـتشـرف الخير والبر... تنتقل بكُليتها... قلبًا وقالبًا... من حمأة الجاهلية إلى قمة الإسـلام وذروته... حينها يشـع كوكب اسـمها في فضـاء الصـادقين، ولا نسـأل بعدها عن بركات الفتح المبين؛ لأنها ستكون مبهرة!

التخلف العقدي وتأثيره على أمتنا

وإني على ثقة تامة أننا سننجو من هذا الكيد والمكر الكُبّار؛ ذلك أننا شاهدنا في عصرنا الحديث النماذج الراقية الأقرب لذلك الجيل المتفرد في العطاء والتفاني في خدمة الدين.

ولأن نخبة من أبناء هذه الأمة قد نجحوا في تشخيص حال الأمة وحددوا مضرب الألم، ألا وهو التخلف العقـدي الذي ترزأ تحته أمتنا الإسـلامية، والذي هو الأصـل وراء كل تخلف علمي وثقافي وحضـاري واقتصـادي وعسـكري وفكري، نخر في أركان هذه الأمة منذ عقود، فأنى لها أن تعود قبل أن نعالج هذا النقص؟! والتشخيص السليم هو أساس العلاج الناجع.

ولن يكتمل هذا العمل إلا إذا وازته قوة تدفع الغزو الصـليبي عن بلاد المسـلمين على كل المسـتويات الفكرية والاقتصـادية والعسـكرية، وقوة أخرى تسـد الثغرات وتعوض الخسـارات التي أحدثها الغزو الفكري الأمريكي الغربي وتستدرك ما يمكن تداركه من خلل ونقص؛ بسبب تداعيات هذا الغزو لعقود من الزمن. فهي بحق مرحلـة المقـاومة والجهاد، مرحلة البناء والاسـتدراك، مرحلة وحدة الصـف والهدف. وحينما يكون الحادي هو المنهج القائم على مبدأ التوحيد الخالص لله، والذي يسـتقي أنواره من الكتاب والسنة، فإننا نتحدث عن تحقيق عبقرية الإسلام المذهلة بشكل هو الأقرب لمرحلة صدر الإسلام الأول.

ذلك أن معطيات عصرنا اليوم هي الأشبه بمعطيات ذلك العصر حينما دخل نور الإسلام على قريش وهم في ذروة الجاهلية. فأنتجت لنا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم مع عشرات الصحابة من حوله دولة إسـلامية عظمى امتد أثرها إلى الصـين وروسيا والأندلس وأدغال أفريقيا، بعد أن كانت مركزًا صغيرًا لا يكاد يُذكر في المدينة المنورة.

وتحقيق هذه العبقرية التي يحملها الإسلام، سيكون الحل الجذري لمشاكلنا ونوازلنا وكوارثنا، ثم الهدية الأروع ليس فقط لأمة محمد بل للبشرية جمعاء؛ ذلك أن حضارة الإسلام هي الوحيدة التي حفظت هذا

العالم من الطغيان والظلم ورسخت فيه مفاهيم العدل والازدهار بحق على كل المستويات الفكرية والمادية والروحية.

وهو ما فشل فى تحقيقه الغرب بقيادة أمريكا، بل على العكس حقق الدمار لكل ما يتصل بالحضارة

حين أمعن فى كفره.

أمريكا التي رأيت

ولأن وعد الله ماضٍ وسننه تتكرر لا تحابي أحدًا، سنسافر معًا في هذه الرحلة التي أدون فيها أهم ما عايشته في بلاد الصلف والكبر والغرور «أمريكا»، لعلنا نمزق ذلك القناع الذي خدع الكثير من المسلمين المنبهرين بهذه الدولة المحاربة، وشغلهم عن حقيقة بشاعتها، ونستفيد من حقائق واقعنا لنوظفها توظيفًا سليمًا يرتقي لمستوى الحدث الذي ينتظرنا؛ ألا وهو عودة الخلافة الإسلامية على منهج النبوة كما وعدنا الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-.

ولا أخال هذه المرحلة ستكون إلا مع سقوط القوة الأمريكية «العظمى ماديًا»، لتحل محلها قوة الحق والعدل والإسلام الأعظم «روحيًا» ليحق الله الحق بكلماته، وهو ما أرى أماراته تتلألأ في الأفق القريب بإذن رب غالب، فمن يجرأ على تحدي قدر الله؟!

لماذا أمريكا؟

كم هو مؤلم أن يستمر تطابق وصف سيد قطب لأمريكا بنفس الدقة التي نصفها بها اليوم إبان الألفية الثانية! لا أقصد التوصيفات الجغرافية، والإحصاءات الاقتصادية والاجتماعية؛ فهي تصب كلها في نفس الخلاصات، وتستمر بنفس الاتجاهات التي وصل إليها قطب.

وتلك تسعدنا، لا تحزننا؛ لأننا نرى فيها قدر الله يتحقق في قوم جبارين، وسننه تتوالى على قوم كافرين، ولكن ما يؤلمنا بعمق هو حقيقة أن أمريكا، ذلك العالم المترامي الأطراف بقواعد عسكرية في كل زوايا الأرض، وبتاريخ دموي بشع صارخ بألوان الإجرام في كل مصر، لا زالت تشغل أذهان الناس وتصوراتهم أكثر مما تشغل من الأرض رقعته الفسيحة، وترف عليه أخيلتهم وأحلامهم بالأوهام والأعاجيب، وتهوى إليه الأفئدة من كل فج، شتى الأجناس والألوان، شتى المسالك والغايات، شتى المذاهب والأهواء!

ما الذي تساويه أمريكا؟

وتزداد مرارة هذا الشعور حينما نجد أن سؤال سيد قطب الذي طرحه في نهاية الأربعينيات لا يزال يتردد صداه اليوم بعد كل هذه السنين، ليجد نفس الإجابة والحقيقة، فما الذي تساويه أمريكا في ميزان القيم الإنسانية؟ وما الذي أضافته إلى رصيد البشرية من هذه القيم، أو يبدو أنها ستضيفه إليه في نهاية المطاف؟

ورغم ذلك، لا زال أقوام من بني جلدتنا يحلمون بأن تطأ أقدامهم أرض أمريكا وتلفح جلودهم نسماتها، ومنهم من يحلم بأن يقبّل ثراها، وقد رأيت من يفعل ذلك بأم عيني؛ ليس سجود شكر لله، بل سجود تقديس لأرض مدنسة بأشكال الكفر والصلف والكبر والطغيان.

وفي حين كان قطب يخشى ألا يكون هناك تناسب بين عظمة الحضارة المادية في أمريكا، وعظمة (الإنسان) الذي يُنشِئ هذه الحضارة، ويخشى أن تمضي عجلة الحياة، ويطوى سجل الزمن، وأمريكا لم تضف شيئاً -أو لم تضف إلا اليسير الزهيد- إلى رصيد الإنسانية من تلك القيم، التي تميز بين الإنسان والشيء، ثم بين الإنسان والحيوان.

فإنني أؤكد اليوم -وبكل ثقة- أن أمريكا لم تضف شيئًا، ولا حتى اليسير الزهيد، بل على العكس من ذلك، أمعنت في هدر كرامة الإنسان وكرامة المسلمين خاصة، وزاد عداؤها وحقدها وانحدارها أكثر بعد خسارتها في حربين عظيمتين استنزفت خزائنها وخلطت أوراقها: الأولى في أفغانستان، والثانية في العراق.

ثم لماذا بأمريكا تحديدًا نضرب المثال؟

ذلك لشدة انبهار أغلب المسلمين بحضارتها الزائفة، وتعلقهم بعبقريتها التي تجمعت وتبلورت في حقل العمل والإنتاج على حساب حقل القيم الإنسانية؛ ففتح الله عليهم أبواب كل شيء لَمَا نسوا ما ذكروا به، وبلغوا ما لم تبلغه أمة قبلهم، على مستوى العلم كما العمل.

ولا نستغرب أن نجد إلى اليوم، ورغم كل البلاء والدمار الذي نال الأمة المسلمة مما نالها على أيدي الأمريكان، نجد شباب المسلمين يحلمون بهجرة لأمريكا، وفرصة انطلاقة لامعة على أرضها -وإن كانت بدايتها بتلميع أحذية الكافرين-!

ذلك لأن مفهوم اللمعان لديهم يختلف تمامًا حينما يكون في أمريكا، فتعجب لدرجات الصبر التي يتميزون بها على تجرع غصاصة الذل والمهانة في أرض كانت بمثابة الحلم، في حين لا نكاد نجد لهم ذرة من ذات الصبر في بلادهم التي لا تزال نامية.

فردوس العصر

وهذا يصب في مفهوم أن أمريكا هي فردوس العصر بالنسبة لهؤلاء؛ هي الهدف، هي المبتغى ومبلغ المنى! وهذا الذي دفع بكثير من شباب المسلمين ومن أصحاب الشهادات الراقية إلى الارتماء في أحضان الانهزامية للحضارة الأمريكية، انعدمت مع هذا الارتماء جميع ملامح الإبداع لديهم في بلدانهم، وبدل ذلك نراهم يكابدون الأهوال في سبيل نيل إقامة أمريكية، أو الاستمرار في تحصيل بعض مزايا هذه الإقامة!

فقد شاهدت أطباء في شتى الاختصاصات، وأساتذة ودكاترة جامعات يعملون في وظائف لو عرضت عليهم في بلدانهم لكان ردهم سيلًا من السباب والشتائم، ولكن أن تحمل فضلات الكفار، أو تقود سيارة أجرة، أو تغسل أرضية فندق، أو تسارع لتلبية طلبات الزبائن في المطاعم والأسواق وأنت صاحب الشهادة الجامعية «المرموقة»، فهذا أمر مستساغ، بل منتهى الدهاء والنباغة.

وذلك في سبيل الحصول على وثائق مواطنة أمريكية أو جمع بعض الدولارات لطلة غنية تبهر الذين لم يفلحوا بعد في الوصول إلى أرض ما بعد الأطلسي فيموتون كمدًا. وقد حصل أن ركبت في سيارات أجرة يقودها عرب؛ هذا طبيب عام، وهذا أستاذ جامعي في مادة التاريخ، وهذا مهندس إلكترونيات، وكان كل منهم يبوح بما في صدره من علم ومعرفة في مجال اختصاصه لكل من يركب معه من العرب، وكأنه الحنين الجارف الذي كبتته الرغبات المادية القاهرة!

لقد قص علينا أستاذ التاريخ قصة التاريخ منذ عصر الدولة الأموية إلى عصرنا اليوم بعرض مبهر يشع نباغة وثراء بالمعلومات، ولكنه بدل أن يفيد أمته كان يسوق سيارة أجرة في بلاد أعداء أمته، أمريكا!

ثم لماذا أمريكا؟

لأنها بلا أدنى شك على رأس قيادة هذا العالم، تتربع على عرش الهيمنة القطبية لعقود، استطاعت بفضل دهائها ومكرها وقوتها المادية أن تسيطر على الاقتصاد، وتهيمن على كواليس السياسة، وتبتز وتناور وتمرر ما تشاء في كل أرض لها فيها مصلحة، وإن كانت تبعد عنها آلاف الأميال بقوة السلاح ودهاء المستعمر!

لأنه ما من جريمة في الأرض اليوم إلا وارتبط اسمها بأمريكا، أو نجد لها علاقة خفية أو ظاهرة بالأطماع الأمريكية التي قلبت من بلاد المسلمين مسرحًا لتجاربها العلمية والعسكرية، ووظفت لذلك كوادرها من مفكرين وعلماء وباحثين لدراسة كل حركة وسكنة في مجتمعات المسلمين، وتقديم التقارير الوافية لحركة الصحوة الإسلامية بجميع أشكالها وألوانها.

وبات العالم الإسلامي تحت عدسة مجهر أمريكي، يتتبع كل ما يدور فيه ويتصرف في الوقت المناسب لإجهاض أية محاولة للنهوض، ثم الحرص على تعميق تأثير الأنظمة الوظيفية التي أقامها بظلمٍ منه، وظُلْمِنا لأنفسنا، في نفس الوقت الذي يواصل فيه تأثيره -أو بالأحرى غزوه الفكري- من خلال نوافذ الإعلام، والتعليم، والسياسة!

الإعلام

استطاعت أمريكا أن تخترق البنية الاجتماعية في العالم الإسلامي بفضل آلة إعلامية؛ تعتمد على أخطبوطات من المؤسسات والقنوات والبرامج الهدامة، فضلًا عن استراتيجية متبعة لترويض الشعوب، وضخ المفاهيم الفاسدة بلغة عربية فصيحة، ثم ذلك التمهيد المتواصل لاستمرار شعور الانهزامية أمام تفوق الرجل الأبيض الذي لا زال في الأفلام الهوليودية، الرجل الأكثر قوة وذكاء ونباغة عن جميع الشعوب.

ولنا أن نتأمل قليلًا، كم من الزمان تَشَربت فيه أذهان شباب المسلمين أفكار تلك الأفلام الهوليودية الأمريكية، وكم من التمجيد للحضارة الأمريكية نجحت في ترسيخه تلك الأفلام في مجتمعات عاجزة عن النهوض من حفر التيه والعبث والخنوع والقمع!

كم من الانبهار ظهر على أعين المشاهدين «الملايين»؛ الذين يحفظون أسماء الممثلين الأمريكيين أكثر مما يحفظون آيات القرآن، ويتابعون أحط اهتمامات هؤلاء الممثلين، وإن كان على حساب دوامهم ومهامهم في الحياة!

أهداف الإعلام

إن الإعلام الأمريكي تمكن من تحقيق أهداف كثيرة له خلال مسيرة عقود من الزمان، ألخصها في نقاط:

- اختراق الفكر الإسلامي، وزرع الانهزامية بشكل يصعب اقتلاعها إلا بجهد جهيد.
- شغل الأذهان بما حط من اهتمامات باسم الدراما والسينما والفن والرفاهية؛ فيمضي الشباب المسلم الساعات -الثمينة- في متابعة أفلامهم وبرامجهم منبهرًا معجبًا بها، في حين يقضي شبابهم ساعات عمله بجد وتفانٍ، يركز فيها، لا يحق له أن يتسلى خلالها إلى بعد انتهاء دوامه!
- تشويه المفاهيم الإسلامية القويمة، واستبدالها بمفاهيم العلمانية والديمقراطية والليبرالية، حتى بتنا نسمع العجائز يطالبون بالمساواة بين الرجل والمرأة، وبحكم ديمقراطي يحكم البلاد. ولو سألت إحداهن ماذا تعني لك الديمقراطية؟ لأجابت بلا تردد: الحرية!
- تدمير المنظومة الأخلاقية والاستهانة بالذنوب والانحلال الخلقي؛ فأضحت مشاهد العري والفسق والفجور وشرب الخمر والزنا والنصب والسرقة والمكر كلها صفات مستساغة، ويمثلها الرجل الشجاع والبطل الهمام الذي تظهره كاميرات الإعلام بطلًا، وإن هدر كرامة الإنسان، وداس على القيم والمبادئ الإنسانية -فضلًا عن الدينية-!
- حرف الحقائق التاريخية؛ بحيث أصبح الناس يستمدون معلوماتهم التاريخية من الإعلام الأمريكي، وتحديدًا أفلامه التاريخية، فأصبحت رحلة الأمريكي في فيتنام رحلة البطولة والفداء، وقصفهم نجازاكي وهيروشيما ضرورة لها أحكام، وغزو العراق خدمة لأمة الإسلام، وحرب أفغانستان حربًا لأجل الحرية وقيم الإنسان!! وأضحى الانتقاد الواحد للأمة الأمريكية تعديًا على الحريات، والإشارة السلبية الواحدة تهمةً بالتخلف والانحطاط!
- تسهيل مهمة الأنظمة الطاغوتية بإحكام قبضتها على الشعوب؛ فحين تنشغل هذه الشعوب بإعلام يغيبهم عن مسلك النجاة، ويدلهم على الفحشاء، ويشعل فيهم الشهوات ويغمسهم في ملذات الإنسان، ويغيّب عنهم أهم ما يمسهم من معطيات هي ضرورية لنهضتهم، ويعمق في داخلهم السلبية والانهزام، أنى لهم أن يقوموا لمهمتهم في هذه الحياة؟ وأنى لهم أن يتحملوا تكاليف الدعوة والجهاد؟!

- تمكن الإعلام من تشويه صورة الصحوة الإسلامية -ولو مرحليًا أو جزئيًا-، ونحن نقيس على النسبة المئوية للتأثير الإعلامي على الشعوب المسلمة، ولا نتحدث عن فشل هذا التأثير في النخبة منها؛ لأنها نجت بحفظ نفسها من براثن هذا الإعلام، ونجحت في نقده بعلم وبصيرة.

وبالنظر في مآلات الثورات التي اندلعت مع الربيع العربي، فقد كشفت هذه الثورات مدى تأثير الإعلام الغربي العميق في التيارات الفكرية في عالمنا الإسلامي، ومدى تشرب الجماهير لتلك المفاهيم العلمانية والديمقراطية بإيمان منقطع النظير؛ جعلها تقاتل لأجلها على أنها السبيل الوحيد للخلاص!!! وفي نفس الوقت بدأت المقاومة الشريفة توصم بالإرهاب! وانقلبت المفاهيم وتحولت البوصلة بدل اتجاه الاستدراك إلى تعميق الهوة!

وفي الواقع، صعب جدًا تلخيص دور الإعلام الغربي، على رأسه الأمريكي، في اختراق المنظومة الفكرية والعقدية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية لشعوبنا المسلمة، وأرى أنه يحتاج سِفرًا منفردًا؛ يسبر أغوار هذه القضية بجميع تفاصيلها.

التعليم

لا يكاد يخلو فصل جامعي ولا حتى ثانوي من نقاشات الطلبة الحالمة التي يكشفون خلالها عن أمانيهم في الحصول على شهادة من جامعة أمريكية مرموقة، ولا يزال الطلبة الذين تمكنوا من الحصول على هذه الفرصة ينظر إليهم نظرة التميز والغبطة!

ولو نظرنا إلى السبب خلف هذا الانبهار بالشهادات الأمريكية، نجده تحصيل حاصل للجدية والتفاني الذين تتميز بهما جامعاتهم ومدارسهم؛ التي تولي اهتمامًا عظيمًا بميادين العلم، وتضخ فيها الملايين من الأموال؛ في سبيل أن يسمو العلم المادي على كل علم.

رؤية الإنسان في أمريكا

وكما شَخّصَ ذلك سيد قطب ببراعة عجيبة، فإن الإنسان في أمريكا ولد على مولد العلم، فآمن به وحده، بل آمن بنوع منه خاص: هو العلم التطبيقي؛ لأنه وهو يواجه الحياة الجديدة في القارة الجديدة، وهو يتسلم الطبيعة هنالك بكرًا جامحة عتيدة، وهو يهم أن ينشئ ذلك الوطن الجديد الذي أنشأه بيده، ولم يكن له من قبل وجود، وهو يصارع ويناضل لبناء هذا الوطن الضخم، وهو يفعل ذلك كله، كان العلم التطبيقي هو خير عون له في ذلك الجهد والتنظيم والإنتاج.

وهذا ما عرفته بعمق خلال دراستي الجامعية في حقل البحث العلمي، وخلصت إلى نتيجة واحدة مع قطب، هي أن العلم بالنسبة للأمريكان هو السلاح الأهم والأكثر إتقانًا! وأن الأمريكان يصرفون جدهم لتحصيل علمي فائق، وتقدم مادي هائل، وعبقرية تنظيمية مبدعة، وروحًا من الجلد والصبر على العمل والإنتاج، توازيها روح عملية في مواجهة المشكلات خلال الدراسة والتنفيذ.

ولا شك أن هذه ميزة تتميز بها الحضارة الأمريكية؛ وهي اتخاذ المنهج العلمي في البحث والصبر عليه، وعبقرية التنظيم واعتماد التجربة كأساس لأي بحث؛ ما كان نتاجه تقدمًا هائلًا في ميادين العلوم البحتة والتكنولوجيا الحديثة، لكنها تبقى برمتها مبتورة الأصل والغاية.

نهبٌ للعقول

ومع ذلك، يقترن اليوم النجاح العلمي عند المسلمين بشهادة أمريكية، والحظ الكبير بحصول قبول منحة دراسة في جامعة أمريكية! وهذا ما يدفع شبابنا المتعلم للتعلق بأمريكا، وتذهب عقول هذه الأمة مغتربة؛ لتصب عبقريتها ونتاجها في سبيل ازدهار الأمة الأمريكية، بينما أمة الإسلام في أمس حاجة لهذه الطاقات العلمية!

ولا يعني هذا أن ننسى المواقف المشرقة لبعض علماء المسلمين الذين داسوا على عقود العمل الأمريكية في حرب العراق الأولى، وقدموا استقالاتهم من أكبر الجامعات. حتى أن أحدهم كان يصل راتبه السنوي إلى مائة ألف دولار، ولكنه حمل نفسه وعائلته وخرج من أمريكا؛ تدفعه غيرته ومروءتُه أن يخدم بلدًا يَقصِف وطنَه العراق، وأمثلة كهذه لا تُعدم، وتدعو للتقدير.

ثم في مقابل هذا الاستقطاب تعمد الإدارة الأمريكية للضغط على المؤسسات التعليمية في ديار المسلمين لإجبارها على حرف المناهج، وإقامتها بالشكل الذي يرضيها؛ خاوية من الإسلام، فتخرج أجيالًا من الطلاب لا يعتزون بتاريخ، ولا يعرفون خُلُقًا، ويَلْوُن أعناقهم إلى أمريكا متشبثين بكل ما هو انسلاخ من الإسلام، وذوبان في الغرب، إنه بحق داءُ التغريب الخبيث. فكانت استراتيجية مزدوجة: استقطاب عقول المسلمين وتغريبهم وتوظيفهم في سبيل أمتهم وقوتهم، وفي ذات الوقت تغييب من بقي في بلده بطرق ماكرة أقلها تطويع البرامج التعليمية لصالح الأهداف الأمريكية.

السياسة

وأما في السياسة فلا أوضح من مظهر التسابق المحموم لإقامة الحكم على طريقة العلمانية والديمقراطية، واعتبار القوانين الوضعية منتهى الرقي والحرية، بتهميش متعمد وصفيق لكل ما يتعلق

بحكم الله، وهو حكم الشريعة الإسلامية! فمن أين جاءت هذه المفاهيم التي تشربت من قواميس الحكم الغربي الكافر؟ لا بد أن من ضـــخها في أمتنا هو الكيد الأمريكي المشـــؤوم؛ حين نشـــرت أمريكا حبال هيمنتها، فأضـــحت ترقص معها شـــخصـــياتنا الســـياســـية كما ترقص الدمى المعلقة بالحبال وهي توهم الجماهير المتفرجة أنها على شيء!

فقد نجح الأمريكان في توريد النظم السـياسـية، وكذا الاقتصـادية والاجتماعية من خارج الإسـلام إلى ديار الإسـلام؛ فاسـتوردت النظم والمبادئ للمسـلمين من عند أعداء الإسـلام! وأقنعتهم بتشـريع بغير ما أنزل الله مُسـتمَدًا من قاعدة غير إسلامية؛ ألا وهي «تعبيد البشر بعضهم لبعض، بدلًا من تعبيدهم لربهم وخالقهم سبحانه»، فكان حكم جاهلية يبغون!

وارتفع صـيت رجال السـياسـة البارزين من العلمانيين الذي يصـولون ويجولون، لا يردعهم أحد، وتلتف حولهم الجماهير، في فريق الحكام أو في فريق المعارضة سواء، ورفع كلاهما أول شعار -وإن أضمروه-: «فصل الدين عن الدولة».

دَور الفنون المختلفة

وقد يظهرون أيضًـا كرجال فكر وأدب؛ يضـخون سيل المفاهيم الفاسدة، يكررونها ليل نهار حتى أضحى الجاهل بكل تعقيدات الحكم ومآلات السـياسـة يعتقد أن طريق الخلاص هو العلمانية والديمقراطية لا غير.

وفي نفس الوقت، لا زالت سـياسـة العصا والجزرة، وأحيانًا كثيرة سياسة العصا بلا جزرة، هي السياسة التي تطبقها أمريكا من خلال وكلائها -الحكومـات الوظيفيـة- التي تُنتقى بعناية فائقة، فلا يحكم بلاد المسلمين إلا مستبد ظالم، وقمعي ماكر، وخبيث سارق، ومنحرف ضال، وبعيد عن الإسلام فاسق!

ولا نسـأل عن بطانته وحاشـيته، بما فيها علماء السـوء الذين يشرعنون له، ويخدرون الجماهير بالإرجاء والتمييع، أو التصـوف والتضـليل! ويحطمون عرى التوحيد عروةً عروة! ولا يخفى على ذي لب ترحيب الأمريكان الحار بهذين التيارين المنحرفين عقديًا، المنعزلين سلبيًا، المتواكلين فكريًا.

أفرغا لا إله إلا الله من حقيقتها في قضـية الحاكمية المتصـلة بتحكيم شـريعة الله، وحصـرا العبادة في الشـــعائر التعبدية وحدها، وأخرجا منها بقية التكاليف، فلم تُجْنِ منهما أمة الإســـلام إلا الوهن والانكفاء على النفس واللذات، وحُرمت معهما الحركة والعمل والإنتاجية المطلوبة لأي نهضة منشودة!

وبهذا الشـكل، عمدت أمريكا على تطويع الأمة للواقع المخالف للإسـلام على أنه ضـرورة لها أحكامها، وخدرت العزائم، وأجهضت مساعي الصحوة للعودة للريادة. وتمكن الأمريكان بالفعل من تنحية الشريعة الإسـلامية عن طريق السـياسـة في حياة المسـلمين، ووضـعوا بدلها قوانين وضـعية بدأت تصـفق لها الجماهير! وأضحت العلمانية والديمقراطية هي أسمى المُنى وأحذق الآراء!

مآل مَن أدرك

ولا شـك أن المتدينين نظروا إلى كل ما يجري بأنه كفر صـريح، لا يمكن الرضـا عنه، واسـتنكروه بشـتى الوسـائل الممكنة، إلا أنهم لوحِقوا وقُمعوا وحُورِبوا بكل ألوان الاستبداد والقمع والطغيان! ولم ينجُ شيخ عالم ولا شاب غيور، الجميع ذاق من ويلات هذا الإنكار! وتحت صمت مريب لشعوب المسلمين المُمَلْيَنة!

ولا أرى هـذا إلا نتيجـة التـأثير الجسـيم الـذي حققـه الغزو الفكري البطئ، ولكنـه أكيـد المفعول، والذي استهدف كل ركن من أركان الحياة الإسلامية، وتمكن من سلخ هذه الأمة من هويتها وشريعتها! مع العلم أن السياسة لم تمس بمظاهر الدين الثانوية وحفظت خطًا أدنى؛ لترويض الشعوب وتبديد آلامهم.

وهكذا بدهاء ماكر بعد أن حكمت الشـريعة الإسلامية هذه الأمة ثلاثة عشر قرنًا، لا ترضى بغيرها حكمًا، وكان هذا سبب تميزها ورقيها وانتصاراتها، فحفظت بذلك وجودها التاريخي رغم كل النوازل والأخطاء التي مرت بها، عمد الغرب -على رأسه أمريكا- إلى تسليط أكابر الطغاة المجرمين.

وذلك ليحكموا قبضتهم، ويلجموا الأمة بالحديد والنار والعسف والتسلط. وفتحوا لهم ميادين السياسة، وكـذا الفكر والأدب، وحريـة المرأة بعـد أن طوعوهـا تطويعًـا مذمومًا لسـلطة الثقافة الغالبة، ولأهداف الإمبريالية الأمريكية في العالم.

لهذا كان لابد أن نكشـف زيف الدعاوى والوعود التي تعرضـها أمريكا لهذه الشـعوب، ونحذّر من مغبة الانخـداع بلمعـان كـاذب ومفـاهيم بعيدة عن الحقيقة، والتنبه للتناقض الجسـيم الذي يعرفه الشـعب الأمريكي، والتخبط الذي يعيشه، قبل أن ننبهر بما يستحق منا كل القدح والاستعلاء!

أمريكا التي رأيت: اللقاء الأول وصدمة الحقيقة

قال الفاروق عمر -رضي الله عنه-: «لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية!» وأنا أقول: لم يعرف الإسلام من لم يعرف أمريكا! فمعرفة المسلمين بانحرافات الأمريكان المعاصرة تزيدهم معرفة بكمال الدين المُنَزل من عند الله.

وبداية معرفتي بأمريكا كانت مثل كل شباب هذه الأمة من خلال الإعلام وشاشات التلفاز، وربما قصص المقيمين فيها والزائرين الذين يصفونها بالانبهار لحد التقديس، والإعجاب لحد الانهزام!

وصف الفتاة الفرنسية للأمريكان

ولكن هذا كله لم يثر فضولي لزيارة أمريكا، فقد كنت أسافر من قبل لدول أوروبية أعتبرها أكثر تحضرًا من الأمريكان بشهادة الأوروبيين أنفسهم؛ الذين في الواقع يزدرون الثقافة الأمريكية. فقد التقيت بفتاة فرنسية جامعية كانت تصف لي الأمريكيين بالغوغائيين الذين لا حضارة ولا تاريخ ماجدًا يزين صفحاتهم.

لقد كانت تتحدث عن أمريكا كدولة طغت ولم تقدم حضارة بشرية راقية. لقد وصفت الرجل الأمريكي بالجاف والصلب والمستكبر والمتعجرف! هكذا وصفته لي تلك الفتاة الجامعية! رغم أنها كانت تتجهز لبعثة دراسية لجامعة أمريكية! ولكنها لم تكن بذلك الاندفاع والإعجاب الذي يتصف به شبابنا إذا ما تمكنوا من الحصول على تأشيرة سفر لأمريكا.

حلم وجد طريقه بلا ترتيب

كنت أنهيت دراستي الجامعية وكان يراودني حلم، كما كثير من الطلبة الطموحين؛ أن أستمر في تحصيلي العلمي في حقل الدراسات العليا، وحين نظرت في مستويات الجامعات العربية وجدتها لا تلبي طموحاتي البتة، خاصة وأن مجالي الدراسي في الطب -وفي البحث العلمي تحديدًا- يتطلب جامعات متمكنة ماديًا وعلميًا.

وذلك لتقدم لطلابها برامج تعليمية منافسة قوية في الجانب التطبيقي، ثم الحصول على شهادة من جامعة غربية يؤهلني إلى أن أفيد المسلمين -ربما- بشكل أفضل حين أستغل علومهم لخدمة أمتنا. كانت هذه الفكرة تراودني ولكنني لم أسع لها بجدية، حتى انفتحت أمامي الفرصة فجأة بسفر عائلي

اقترح عليّ فيه أن أكون جزءًا منه، وأجرب حظي في أرض أمريكا -الحلم الواعد بالنسبة لمن كان يرافقني في هذا السفر-.

حين كنت أتجهز للسفر شدني ذلك الاهتمام ممن حولي، تبريكات، تهانٍ، هدايا وتواصي، وكأن هذا السفر هو منتهى المنى وأبلغ الأماني، مع أنني سبق وأن سافرت لبلاد الغرب مرات عديدة! تعجبت من شدة فرحتهم، فهذه المرة الوجهة مختلفة «إنها أمريكا» ولكنني كنت متوجسة خيفة!

فمعرفتي بأمريكا كانت متأثرة بدراستي للتاريخ، وببشاعة صفحاته الدامية وجرائمه المتوالية، كانت مرتبطة بمشاهد القتل والدمار وملجأ العامرية وحرب العراق، كانت تتصل بكل ما يسمى دعمًا أمريكيًا لليهود وصفاقة الأمم المتحدة، لهذا كنت أرى الرجل الأمريكي ظالمًا متكبرًا، وكنت أخشى ألا أتمكن من التعايش مع هذه العقلية، أو أن أصبر على هذا النوع من الخلق.

بين عهد بالثبات وتنازلات الغير

ولكنني جمعت همتي، ووجهت عزمي على أخذ ما يفيدني من هذه الأرض، والعودة بخيره إلى بلاد المسلمين. وأن أتفادى كل ما يؤذيني في عقيدتي وسلوكي، فيضرني ويضر من حولي. ولكن للأسف لم يكن هذا حال كل من يرافقني في هذا السفر.

لقد أبصرت التنازل عنوانًا يبرق في جنباتهم في كل موقف ولحظة، لقد كانوا مستعدين حتى لترك الصلاة كي لا يلفتوا الانتباه ويخدشوا شعور الأمريكان، تنازلات انطلقت منذ أن وضعنا أقدامنا في الطائرة، من سماع للأغاني الغربية، ومن لباس يحاكي الغرب بشكل صارخ، ومن تصرفات تدعو للتأمل. هل كل من يريد السفر لأمريكا عليه أن ينسلخ من ذاته وينقلب أمريكيًا؛ ليذوب في ثنايا القوم!

منظر لا يُمحى من الذاكرة

لقد كان مسار طائرتنا الإقلاع من بلاد الشام إلى إيطاليا -«كترانزيت»-، ثم نتحول في طائرة أخرى إلى نيويورك لنحط الرحال في مطار جون كيندي الشهير، ولعل أكثر ما آلمني لحظة إقلاع الطائرة حتى شعرت قلبي يتخطف ويعلق في ذلك المنظر لا يكاد ينفك عنه، رؤيتي لقبة القدس، تتلألأ مشرقة، وكأنه بريق الصبح رغم أننا كنا في وقت العصر!

لقد كانت شامخة عزيزة رغم الحصار والاحتلال، لقد كانت تدوي في فضاء السماء بأنها هنا، مهما حاول العابثون محو وجودها وسحق حقوقها، لقد شعرت أنني أقتلع من أرضي، وتفجر الحنين في داخلي منذ

أول ثـانية حين لمحت المنظر، ولم أعلم أنني ســأبتعد كثيرًا وكثيرًا جدًا، لأميال أكثر، عن أرض الأنبياء ومهبط الطهر وموعد النزال!

وأثناء تلك المشـاعر الدافئة وقضـية فلسـطين تدور في خلدي كأنها أسـطورة خالدة، استمر السفر هادئًا حتى أبصـرت جبال الألب بخشوعها الذي لا ينساه صاحب قلب، لقد كانت بهذا الوصف، لا أجد أبلغ منه، خاشـعة! بجمالها وروعتها! سـكون وهدوء وشـموخ! لقد أوحت لي الكثير من الأوصـاف، وحركت لواعج النفس!

تَوق إلى عزة الإسلام والمسلمين

في إيطاليا نزلنا برفق؛ هناك رأينا جموع البشـر من كل مكان، فسـبحان من خلق كل هؤلاء! ولكن أكثر ما هالني تلك الطائرة المخصـصـة لليهود بلباسهم الديني وشعورهم المنسدلة ونظراتهم المتوعدة الحاقدة، لقد أحسست بمرارة؛ ذلك لأنني تذكرت منظر القدس!

ركبنا بعدها في طائرتنا التي كان أغلب من يركبها من الهنود يتجهون إلى أمريكا، لقد كان عددهم كبيرًا، وكان أغلبهم من عباد البقر. ومن الطرائف التي تدعو للتأمل، أن الطعام حين وزع شـمل وجبتين اثنتين، واحدة بلحم البقر والأخرى بالسـمك، فاخترنا السـمك لأن خطوط الطيران التي سـافرنا على متنها كانت غربية، ولا شك أنها لا تقدم لحمًا حلالًا، ولكن الكثير من الهنود اختاروا لحم البقر جهلًا منهم أنه من البقر.

ثم كانت الصـاعقة وسـمعنا صـياحًا من الخلف؛ لقد كان أحد الهنود «يولول» ويصـب جم غضـبه على المضيفات اللاتي لم ينبهنه أنه سيأكل لحم ربه! فالحمد لله على نعمة العقل، أيعقل أن يعيش في الأرض إلى زماننا أصحاب جاهلية كهذه!

مصاحبة القرآن

لقـد كـانت رحلة طويلة، طويلة جدًا، مملة، مرهقة، ولم أجد إلا القرآن أتصــبر به، والتفكر في قدرةِ الله ورعـايتـه، ثم قانون الكون الذي جعله الله يحمل تلك الطائرة الصــغيرة على ثَبجِ الســحاب وخِصَــمِّه الرهيب.

وما أن أعلن القبطان أننا سندخل الأجواء الأمريكية، لتلك المساحات الشاسعة من الأرض بين الأطلنطي والباسيفيكي، حتى نظرت أسفل مني فرأيت المحيط، لكن منظره أسر قلبي! فقد شاهدت الأمواج تمامًا

كما يصفها الله سبحانه وتعالى: (إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

بين حُسن مبدأي ومساوئ كثيرة

ثم سرحت فتفاجأت بالتصفيق في كل الطائرة، لقد صفقوا للقبطان على إنجازه «الرائع» في قيادة الطائرة باحترافية وأمان، حتى وصلنا سالمين، نعم لقد كانوا يتقنون فن شكر، وابتهج له فريق المضيفين والمضيفات.

طيلة الرحلة ونحن نشعر بالاحترام، حتى وصلنا إلى أرض أمريكا، بدأنا نشعر بالريبة تطوقنا، نظرات الأمريكيين لكل من يصل عندهم مزعجة، نظرات تفحص وتفرس! يتحدثون معك باستعلاء وكأننا العبيد وهم الملوك.

كانت لحظات مرهقة تلك التي ترافق تفقد الوثائق والتحول من مكان لمكان وكأننا قطعان، تفتيش وتنقيح ومراقبة، لقد شعرت أنني أساق كالأنعام، ولم أكن لوحدي فقد كانت كل الجنسيات تعامل بذات الطريقة، حتى الغربيين من جنسيات أخرى كانوا يختنقون -وإن لم يكونوا يعبرون-.

ففظاظة الأمريكان كانت غالبة تدفع بالمسافر للنفور، وحقيقة كما وصفها سيد قطب، يبدو الأمريكي - على الرغم من العلم المتقدم والعمل المتقن- بدائيًا في نظريته إلى الحياة، ومقوماتها الإنسانية الأخرى بشكل يدعو إلى الدهشة.

المادية العفنة والحصون المنيعة

ولعل لهذا التناقض الواضح أثره في ظهور الأمريكان بمظهر الشعب الغريب الأطوار في نظر الأجانب، وليست البدائية الشعورية هي التي تطمس الكثير في النفس الأمريكية؛ ولكنه جفاف الحياة من التعاطف الوجداني، وقيامها على معادلات حسابية مادية، وعلى علاقات الجسد ودوافعه، واستخفافها عمدًا بكل ما يشتهر أنه من مقدسات الناس في العالم القديم، والرغبة الملحة في مخالفة ما تواضع عليه الناس هناك، وإلا فما مزية الدنيا الجديدة على ذلك العالم القديم؟

وأكثر ما لفت انتباهي هو تلك التحصينات الضخمة لمطاراتهم والمراقبة الحثيثة؛ لقد كنا ندخل في ممرات، ونصعد درجًا، وندخل في أنفاق وكأننا في مملكة متطورة شديدة التحصين، تعكس قوة مادية عظيمة.

جهل وتنازلات

نعم، تنفســت الصــعداء فور خروجي من هـذا الكـابوس الغريـب! ولكنني تفـاجأت حين رأيت زوجين سـوريين يتبادلان التهنئة؛ لنجاحهما في الوصـول لأمريكا بشـكل مثير للدهشة! وحين وصلنا إلى مخرج المطار لفت انتباهي صـاحب التاكسي الذي كان عربيًا لبنانيًا، لقد رحب بنا بحرارة وكأننا من عائلته، كان طيبًا جدًا، يشتاق لرائحة البلد على حد تعبيره!

وبعد أن ركبنا معه وبدأت رحلتنا إلى داخل أمريكا، كانت بالنســبة لي هي الانطلاقة في اكتشــاف تلك الهندسـة المتقدمة، والبنايات الشـاهقة! أما بالنسـبة للسـائق فقد كانت رحلة للماضي! فقد بدأ يسألنا عن الشام، وعن الأطعمة والمناطق التي زارها من قبل.

ثم بدأ يحكي لنا قصـته في أمريكا التي عاش فيها منذ أكثر من ٢٠ سـنة، وكيف أنه ترك مجال دراسـته واشتغل بسياقة التاكسي، وأنه اضطر لإقامة علاقة مع أمريكية كبيرة في السن؛ ليضمن التسهيلات في حياته.

وبينما هو يتحدث... كان أبرز ما لفت انتباهي هو مدى ما نعانيه من تبعية وانهزامية لهؤلاء القوم؛ فلم نتعلم من أجيال الصحابة الشيء الكثير، ولم نقتدِ باستعلائهم بالدين على كل ساقط.

الفرق بيننا وبين هؤلاء المسلمين بحق

فقـد كـان الصــحابة في عصــرهم يتفوق عليهم الإغريق والرومان الفرس كثيرًا في المجال العلمي، أو المجال المادي والتنظيمي. ولأن دولة الإسلام كانت في بداية مسيرتها، فقد لجأت للنقل من هذه العلوم، واستمروا في ذلك حتى أصبح المسلمون أساتذة في جميع تلك الميادين، وصارت أوربا تتلمذ عليهم في جميع الميادين.

نعم، لقد أخذوا ما أخذوه من علوم، ولكنهم حافظوا على عزتهم واسـتعلائهم بدينهم. فلم يشعروا -وهم ينقلون عنهم علومهم- أنهم أقل منهم. وهذا السـر في أنهم لم يُفتنوا، ولم ينبهروا بما عند الجاهليات من حولهم. وهذا ما يفسر أيضًا أخذهم فقط ما ينفعهم، ولم يأخذوا ما رأوه مخالفًا لدينهم وعقيدتهم.

كمـا قـال محمد قطب مُفســرًا هذا التميز: "لأن موقف الاســتعلاء يتيح لهم أن يتخيروا وينتقوا، بينما موقف الضعيف والاستجداء والانبهار لا يتيح لصاحبه الفرصة للاختيار ولا القدرة على الاختيار، فيأخذ الغث والثمين ويأخذ من الغث أكثر مما يأخذ من الثمين لأنه أيسر أخذًا وأقل تكاليف!"

ولكن في عصرنا، أخذ المسلمون من الأمريكان كل شيء، حتى الشرك والخرافة والانحراف في الأفكار والانحراف في السلوك! لم يفرقوا بين أخذ الأدوات، ولا في مجال الأسس والمناهج، وأخذوه كما هو دون تطويع لمنهجهم الخاص في الحياة؛ فتميعوا وكانوا مجرد مقلدين فيه لا أصليين!

التبعية المتفشية في مجتمعاتنا

لقد آلمني كيف يتم الذوبان وفقدان الشخصية بتأثير النقل بشكل رهيب حين نتحدث عن مسلم يسافر لأمريكا -إلا من رحم ربي-. ذلك أن أغلب الشباب المسلمين الذين يسافرون إلى أمريكا لم يتحصنوا بالعقيدة، ولم يكونوا أصحاب منهج خاص في الحياة. وقد تجد الواحد ينبهر بسيارة أمريكية، في حين في بلادنا سيارات من النوع الحديث لا تقل فخامة، ولكن لأنها أمريكية فتستحق المزيد من التقدير!

ليس عيبًا الإعجاب بصناعة قوم آخرين، أو الاقتباس من أمم أخرى في المجال العلمي والمادي والتنظيمي، وهذا ما فعلته الأجيال الأولى من المسلمين وبلغت بفضل نباغتهم حضارة الإسلام في الجانبين المادي والتنظيمي أروع المستويات، إنما المشكلة في جيلنا المعاصر هو فقدان الأصالة، وفقدانه سمات الأمة المسلمة.

وللأسف لم ينجح المسلمون المنبهرون بأمريكا في التفريق بين استهداف المنفعة المادية والعلمية والتنظيمية دون المساس بمفهوم الحياة الإنسانية وأهدافها. وهي جانب اختياري.

لقد أخذ الصحابة من فارس لكنهم لم ينسوا أنهم مؤمنون وأعداءهم غير مؤمنين، كافرون، لا يعدوا قدرهم الذي حدده لهم القرآن الكريم. إننا هنا لا نقول للمسلمين لا تسافروا لأمريكا ولا تأخذوا من الأمريكان أو الغرب شيئًا. بل نقول إن حركة الأخذ لابد أن تكون مضبوطة بتقوى الله، وألا نأخذ منهم إلا ما نحن بحاجة إليه مما يسمى «البضاعة الحضارية».

مع الترفع التام عن تلك المبادئ والنظم؛ التي أساسها عقائد وتصورات جاهلية لا تصلح للمسلمين البتة، ولا يقبلها دينهم، ولا تنفعهم في دنياهم، وخاصة تلك النظم المتصلة بالتشريع، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، تخالف عقيدة المسلم ومنهجه الرباني للحياة.

مسوخ بلا عقيدة راسخة

وفي هذا العصر شاهدنا كيف نَخر الخواء الروحي والتخلف العقدي والغزو الفكري فينا من كل جانب، وانقاد المسلمون والعرب للأمريكان كما وصفهم بذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ فقد روى

الشيخان عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ-صلى الله عليه وسلم-: لَتَتّبِعُنّ سَنَنَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ. شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ. حَتّىَ لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبَ لاَتّبَعْتُمُوهُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ اليهود وَالنّصَارَىَ؟ قَالَ: فَمَنْ؟

إنه لقمين بكل مسلم ينشد العلم في تلك الأرض أن يتحصن مرة ومرتين وثلاث، فلا يأخذ إلا ما يحتاجه من بضاعة حضارية، ويركل ما دونها من ماديات وأسس ومناهج.

نعم، لا زلت أذكر كيف كانت إقامتي في أمريكا، ولكنني أذكر أكثر أنها كانت السبب المباشر نحو التوجه إلى الله بصدق؛ التوجه إليه بكل ما فيّ، وليس مجرد تأملات وخواطر واعترافات أسجلها في كتاب أو مقال، لقد خرجت من أمريكا إنسانة أخرى جديدة، أكثر نضوجًا وإيمانًا، هذا أمر أكيد!

القوة الأمريكية في ميزان الحضارات

لا زلت أتذكر تلك القوة التي تنبض بها أمريكا ماديًا، تشاهدها أثناء تجولك في الشوارع والطرقات، حين تسافر من مدينة لأخرى، حين تدخل في مباني الجامعات ومراكز البحث والمؤسسات المنتجة على اختلاف أنواعها، موارد لا تنضب من المواد والخامات، ومن القوى والرجال.

نتاج هائل يعيا به العدو الإحصاء، لقد لفتت انتباهي تلك المعاهد والمعامل والمتاحف المبثوثة في كل مكان، وشدتني عبقرية الإدارة والتنظيم التي تثير العجب والإعجاب، سواء في مجال البحث العلمي ومختبراته، أو في المصانع أو الشركات، تشاهد حتمًا وأنت في هذه المناطق الحيوية الرخاء السابغ، وتبصر بحبوحة العيش التي ينعم بها الموظف والطالب الأمريكي.

هذا دون أن ننسى عبقرية الهندسة المعمارية، وتلك البنايات الشاهقة التي تتسابق رؤوسها في مناطحة السحاب، وحين نرتفع في طبقاتها نشعر بضخامة البناء وبعلوه المخيف، ويثيرنا أكثر كمّ البشر الذين يتحركون في هذه البنايات في كل يوم يغدون ويروحون سعيًا لأرزاقهم وملاحقة أحلامهم!

طبيعة ساحرة

ثم مع هذا كله، تزدان الأرض الأمريكية بجمال ساحر في الطبيعة والوجود. لقد كنت أتعمق في كل مشهد يمر عليّ تلقائيًا فأجدني أسبح بحمد الله وقد أثار أشجاني صنع الله، فكأن الطبيعة هناك قد لبست أجمل ثيابها وتأنقت بأبهى الألوان عبر الفصول الأربعة، تفتنك المناظر الخلابة وأنواع الشجر والجبال والهضاب والبحيرات والشلالات المبهرة وأنواع الحيوانات والطيور، كل هذا كان يعتني به الأمريكان بطريقة ملفتة من فرق خاصة بالحراسة وبالنظافة وبالعناية والتطوير، تلمح ذلك على مستوى المدينة كما على مستوى البيت الواحد، فكثيرًا ما نجد البيوت تلفها حدائق ذات بهجة اهتم بجمالها سكانها أيما اهتمام، وبذلوا في ذلك الأموال والأوقات والأفكار.

لا زلت أذكر كل لحظة خاطفة لروحي، وكل إشراقة لها في ضميري تنبض بالإيمان واستشعار عظمة الخالق حينما أقلب بصري في ملكوت السموات والأرض الأمريكية.

التجنيد

وحين كنت أقف في المطارات الداخلية كان يلفت انتباهي التواجد العسكري والجنود الأمريكان الذين لا يكاد يخلو منهم مطار، يودعون أهاليهم وأصحابهم، أو يمضون فرادى بلا وداع لأحد، فهذا مسافر

لأفغانستان، وذاك للعراق، وذاك لقاعدة أمريكية في مكان ما. ويتميز الجندي الأمريكي بضخامة الجسد وصلابة المنظر، لا يمكن أن تراه يبتسم وكأنه أُعِد إعدادًا قاسيًا للحروب والمواجهات، هذا ما يبدو لأول وهلة حينما نشاهد الجندي الأمريكي يحمل على ظهره حقيبة مثقلة بالحاجيات الضرورية لحياته، والتي بدونها لن يقوى على البقاء؛ لهذا فهي لا تفارقه أينما تنقل.

أما مباني السجون وقواعد الجيش فهذه تحصيناتها لا توصف، وصلابة جدرانها لا تعقل، وقد هالني منظر سجن الكولورادو الذي يبدو كترسانة بذاته تعكس درجة التحصين التي تتميز بها مثل هذه المراكز الحساسة في الدولة الأمريكية المحاربة.

ولا شك أن من زار السفارات الأمريكية قد انتبه لذلك التحصين الشديد والمراقبة الأشد منذ أن تطأ قدمه البوابة إلى أن يدخل في مبناها إلى أن يخرج منه.

طبيعة الشعب الأمريكي

نعم، كل هذا سيصطدم به المسافر لأمريكا منذ أول لقاء له بالأمريكان، وفي كل يوم يعيش فيه على تلك الأرض البعيدة، ولكن الأكثر مفاجأة بالنسبة للباحث في حياة الشعب الأمريكي هي طبيعة هذا الشعب وطبيعة الأمريكي بشخصه؛ فرغم أن الشعب الأمريكي شعب يبلغ في عالم العلم والعمل قمة النمو والارتقاء، إلا أنه في عالم الشعور والسلوك بدائي لم يفارق مدارج البشرية الأولى؛ بل أقل من بدائي في بعض نواحي الشعور والسلوك.

ولا زلت أذكر تلك المحادثة التي جرت بيني وبين دكتورة باحثة في الجامعة حين قالت لي بكل ثقة: "نعم إننا ملكنا زمام العلم وبلغنا أعلى مراتب العالم المادي، ولكننا للأسف لا زلنا متخلفين روحيًا؛ لا زلنا بدائيين بشكل واضح، ولم نتمكن بعد من تجاوز هذه الأزمة التي نخشى أن تكون سبب انهيار حضارتنا." ولا شك أن لهذا تفسيرًا يرتبط مع ماضي هذا الشعب وحاضره، وفي الأسباب التي جمعت فيه بين قمة الحضارة وسفح البدائية.

تاريخ أمريكا

فمن يرجع لقصص الجماعات الأولى التي هاجرت إلى أمريكا في أيامها الأولى، ويتصور كفاحها الطويل العجيب مع الطبيعة الجامحة في تلك الأصقاع المترامية، ومن قبل مع أنواء المحيط الرعيبة، وأمواجه الجبارة، في تلك القوارب الصفار الخفاف. حتى إذا رست على الصخور محطمة أو ناحية لقيت النازحين

مجاهل الغابات، ومتاهات الجبال، وحقول الجليد، وزعازع الأعاصير، ووحوش الغابات وأفاعيها وهوامها.

لقد يدهش الإنسان كيف لم يترك هذا كله ظلاله على الروح الأمريكية إيمانًا بعظمة الطبيعة وما وراء الطبيعة؛ ليفتح لها منافذ أوسع من المادة وعالم المادة. بل على العكس من هذا كله، قابلت الروح الأمريكية الطبيعية بسلاح العلم وقوة العضل؛ فلم تُثر في الأمريكي إلا قوة الذهن الجاف، وقوة الحس العارم، ولم تفتح له منافذ الروح والقلب والشعور، كما فتحتها في روح البشرية الأولى.

وحين تغلق البشرية على نفسها منافذ الإيمان بالدين، والإيمان بالقيم الروحية جميعًا، لا يبقى هنالك متصرف لنشاطها إلا في العلم التطبيقي والعمل، وإلا في لذة الحس والمتاع. وهذا هو الذي انتهت إليه أمريكا بعد كل القرون التي مضت.

النفسية الأمريكية الأولى

ويحسن ألا ننسى الحالة النفسية التي وفد بها الأمريكي إلى هذه الأرض فوجًا بعد فوج، وجيلًا بعد جيل، فهي مزيج من السخط على الحياة في العالم القديم، والرغبة في التحرير من قيوده وتقاليده، ومن هذه القيود والتقاليد الثقيل الفاسد، والضروري السليم، ومن الرغبة الملحة في الثراء بأي جهد وبأية وسيلة، والحصول على أكبر قسط من المتاع تعويضًا عما يبذله من الجهد في الثراء.

ويحسن ألا ننسى كذلك الحالة الاجتماعية والفكرية لغالبية هذه الأفواج الأولى التي تألفت منها نواة هذا الشعب الجديد. فهذه الأفواج هي مجموعات من المغامرين، ومجموعات من المجرمين؛ فالمغامرون جاءوا طلاب ثراء ومتاع ومغامرات، والمجرمون جئ بهم من بلاد الإمبراطورية الإنجليزية لتشغيلهم في البناء والإنتاج.

السر وراء البدائية

كل هذه الملابسات وكل هذه الأفواج، كانت وراء استنهاض وتنمية الصفات البدائية في ذلك الشعب الجديد الذي تسلح بالعلم، والعلم في ذاته -وبخاصة العلم التطبيقي- لا عمل له في حقل القيم الإنسانية، وفي عالم النفس والشعور؛ وبذلك ضاقت آفاقه، وضمرت نفسه، وتحددت مشاعره.

فالأمريكي لم تتهذب روحه بالدين، ولم يتهذب حسه بالفن، ولم يتهذب سلوكه بالاجتماع. ثم لم تُلاقِ هذه المبادئ والمثل هواتف في الضمير، ولا حقائق في الشعور، مرجوة التحقق في يوم من الأيام. وعلى

العكس من ذلك، انشغل الأمريكي بمرحلة البناء، البناء لا غير، وما تزال هنالك مساحات شاسعة لا تكاد تحد من الأراضي البكر التي لم تمسها يد، ومن الغابات البكر التي لم تطأها قدم، ومن المناجم البكر التي لم تفتح ولم تستغل، وما يزال ماضيًا في عملية البناء الأولى، على الرغم من وصوله إلى القمة في التنظيم والإنتاج.

الهنود الحمر

وحينما أقرأ تاريخ أمريكا تذهلني تلك الجرائم البالغة البشاعة التي أجرمها الأمريكان بحق الهنود الحمر -السكان الأصليين لأمريكا- وبحق بقية الشعوب. فرغم كل القوة التي تزدان بها الولايات المتحدة الأمريكية، تبقى قيمة الحضارة البشرية ليس فيما ابتدعه الإنسان من آلات، ولا فيما سخره من قوى، ولا فيما أخرجت يداه من نتاج. إنما تبقى معظم قيمتها فيما اهتدى إليه الإنسان من حقائق عن الكون، ومن صور وقيم للحياة، وما تركه هذا الاهتداء في شعوره من ارتقاء، وفي ضميره من تهذيب، وفي تصوره لقيم الحياة من عمق، والحياة إنسانية بوجه خاص؛ مما يزيد المسافة بعدًا في حسابه وحساب الواقع بينه وبين مدارج الحيوانية الأولى، في الشعور والسلوك، وفي تقويم الحياة وتقويم الأشياء.

فالحضارة الأمريكية لم تنشأ على الحرية والإنسانية والعيش المشترك التي يرفعها شعارات اليوم ساسة البيت الأبيض، بل قامت على الدماء وبنيت على جماجم البشر، فقد أبادت أمريكا ١١٢ مليون إنسان من بينهم ١٨,٥ مليون هندي أُبيدوا ودمرت قراهم ومدنهم عن بكرة أبيها، وبأبشع الأساليب وبأفظع وحشية قد يعرفها بشر، خلال ١٥٠ عامًا أبيد فيها الهنود الحمر وسحق وجودهم وسلبت حقوقهم، صورهم الأمريكيون كأناس متوحشين متخلفين يهددون حياتهم فوجب التخلص منهم.

لقد تميز الهنود الحمر بطيبة وسذاجة وبساطة كانت غير نافعة البتة لتقف أمام طغيان الرجل الأمريكي، الذي استعمل قوته المادية لقتلهم بأنواع الحروب، بما فيها القذرة التي سلط فيها جرثومة الجدري والطاعون والحصبة والكوليرا والسل والأنفلونزا والديفتريا والتيفوس! ويعد هذا نجاحًا ومجلب سعادة عند الأمريكان، يقول «وليم برادفورد» حاكم «بليتموت»: "إن نشر هذه الأوبئة بين الهنود عمل يدخل السرور والبهجة على قلب الله".

وقد وثقت ٩٣ حربًا جرثومية شاملة ضد الهنود الحمر على يد الأمريكان، فصلها الكاتب الأمريكي هنرى دوبينز في كتابه « THE NUMBER BECOME THINNED: NATIVE AMERICAN POPULATION».

ويكفي معرفة أن أندرو جاكسون، وهو الرئيس الأمريكي السابع الذي نجد صورته في ورقة العشرين دولارًا الأمريكية، اشتهر بعشقه للسلخ وللتمثيل بالهنود الحمر؛ حيث يذكر بأنه في حفلة واحدة وصل عدد ضحاياه من سلخ وتمثيل إلى ٨٠٠ رجل، وكان يحسب عدد قتلاه بإحصاء عدد أنوفهم وآذانهم المقطوعة. ويعتبر الأمريكان هذه الفظائع أعراضًا جانبية أو أضرارًا هامشية كثمن بسيط من أجل أن يسطع نور حضارتهم.

القوة في ميزان الحضارات

إذن ابتداع الآلات، أو تسخير القوى، أو صنع الأشياء، ليس له في ذاته وزن في ميزان القيم الإنسانية، إنما هو مجرد رمز لقيمة أساسية أخرى هي مدى ارتفاع العنصر الإنساني في الإنسان، ومدى الخطوات التي يبعد بها عن عالم الأشياء، وعالم الحيوان؛ أي مدى ما أضاف إلى رصيده الإنساني من ثراء في فكرته عن الحياة، وفي شعوره بهذه الحياة.

وهذا ما يفاضل بين حضارة وحضارة، وهذا هو الرصيد الباقي وراء كل حضارة، المؤثر في الحضارات التالية.

والحقيقة التي يكتشفها الباحث في طبيعة الحياة الأمريكية هي أن العبقرية الأمريكية كلها قد تجمعت وتبلورت في حقل العمل والإنتاج، بحيث لم تبقَ فيها بقية تنتج شيئًا في حقل القيم الإنسانية الأخرى.

وكم كنت أتعجب من موظفين يعملون السنة كاملة لا يجدون إلا أسبوعين عطلةً خلالها، ورغم ذلك قد يطالبون بالعمل في العطلة لأجل كسب المزيد من المال. لقد تعجبت من درجة الجدية والانضباط في الدوام اليومي مع الأمريكي، فهي قضية مصيرية حاسمة لا يمكن أن يتعامل معها بشكل ثانوي أو بتراخٍ.

وهذا ما يفسر لماذا بلغت أمريكا في حقل العمل ما لم تبلغه أمة، وجاءت فيه بالمعجزات. لقد كاد الإنسان هو ذاته أن يستحيل إلى آلة؛ وهذا ما شغله عن المضي قدمًا في طريق الإنسانية، فأطلق للحيوان الكامن العنان؛ ضعفًا عن أن يحمل عبء العمل وعبء الإنسان معًا.

هذه هي أمريكا التي رأيت، وهي التي تمثل اليوم القوة العالمية المهيمنة، ورأس الكفر والطغيان، ومصدر التمرد على الأعراف، ووكر الفساد في القيم والأخلاق.

نظرة على الشخصية الأمريكية

لا شك أن الشخصية الأمريكية معجبة بالقوة والعلو في الأرض بشكل ملفت للنظر، ترى ذلك في تفاصيل حياتهم اليومية في كل المستويات، وخاصة ميادين العمل والمنافسة والتسابق المادي بما في ذلك ميدان التعليم، يبدو الأمريكي مولعًا بالقوة والتفوق.

وأبسط مثال على ذلك شغفهم بالرياضات العنيفة، فَكُرة القدم الأمريكية والهوكي والملاكمة والمصارعة هي من الرياضات المفضلة لدى الأمريكي، منظرها في هياجها الحيواني المنبعث من إعجابها بالعنف القاسي، وعدم التفاتها إلى قواعد اللعب وأصوله، بقدر ما هي مأخوذة بالدم السائل والأوصال المهشمة، وصراخها هاتفة -كل يشجع فريقه-: "حطم رأسه، دق عنقه، هشم أضلاعه، أعجنه عجنًا". هذا النظر لا يدع مجالاً للشك في بدائية الشعور التي تُفتن بالقوة العضلية وتهواها، كما وصف ذلك بدقة متناهية سيد قطب.

سياسة الإخضاع بالقوة

وبمثل هذه الروح يتابع الجمهور الأمريكي صراع الجماعات والطوائف، وصراع الأمم والشعوب، وهي لا تلبث أن تظهر في مواقف متتالية عبر محطات أحداث العالم كما ظهر مؤخرًا في قضية الاعتراف بالقدس عاصمة لدولة بني صهيون؛ حين تعامل الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بكل صلف وغطرسة بعيدًا عن أي شكلية دبلوماسية أو سياسة استغفالية تكسب الحلفاء، ثم زاد على ذلك قوة التهديد والوعيد لمن يصوّت ضد قراره المشؤوم مستندًا لمبدأ القوة لإخضاع الجميع، وهي صورة لم تذهلني قط لأنني شاهدت الكثير من أمثال شخصية ترامب في الأرض الأمريكية، ولا أبالغ إن قلت هو أفضل من يمثل الأمريكان كشعب يعتمد القوة منهاجًا وعقلية للعيش.

بذاءة اللسان وسوء الخلق

ويوازي هذا الاهتمام بالقوة والعنف استهانة بالمثل والمبادئ والأخلاق على كل المستويات، سواء في حياة الأمريكي الفردية، أوفي حياته العائلية، أو في حياته الاجتماعية. ولعل الأخلاق التي قد تصادفك خلال إقامتك في أمريكا تصادفها غالبًا في دائرة العمل والمال والاقتصاد. ويكفي النظر في العبارات الساقطة التي يستعملها الأمريكي بشكل يومي في حديثه لا يحترم فيها أحدًا. وقد يقولها الولد لوالده، والبنت لأمها، والجار لجاره، والتلميذ لمعلمه، يقولها غاضبًا أو سعيدًا، مازحًا أو محاججًا، في كل موقف وبلا أدنى حياء.

الجهل

لقد تفاجأت كثيرًا أثناء حديث جمعني مع فتيات أمريكيات جامعيات يسألنني عن موطني، ثم وجدتهن لا يعرفن خريطة العالم! يجهلن تمامًا أين تقع فلسطين أو بلاد الشام، أو حتى أي بلد بعينه غير أمريكا. كنت أعتقد هذا الجهل بسبب الدعاية اليهودية لدولة إسرائيل، ولكنني تفاجأت أنهم أحيانًا كثيرة لا يعرفون حتى أين تقع إسرائيل!

لديهم جهل كبير بالكثير من التفاصيل التي تعتبر عند مجتمعاتنا من الأساسيات، خاصة فيما يخص التاريخ والجغرافيا والثقافة العامة التي يتعلمها كل فرد، وكانت هذه النقطة تثير عندي الاستغراب بشكل مستمر.

وفي المقابل، تجد الطالب يتخصص في فنّه لا يتعداه؛ وكأنهم آلات برمجت برمجة خاصة كلٌّ واختصاصه، يستميت فيه، وإن كان في دقائق الذرة حتى يقضي نحبه وهو لا يعرف غير ذلك الفنّ.

دعاة للسلام

إن أكبر كذبة عرفها التاريخ هي أن تكون أمريكا راعية لمعاهدات السلام التي يزعم بعضهم أنها حققت شيئًا أو حفظت حقًا في القضية الفلسطينية. وحين أنظر في الأمريكان بفطرتهم المحاربة المحبة للصراع، وهم قوم تأصلت الحرب في عقولهم على أنها طريق القوة والهيمنة والعلو في الأرض، يبرز ذلك بشكل واضح في سلوكهم، ويتأكد من خلال تاريخهم كذلك، أتعجب من هذا التصنيف بلا معنى دقيق لشعب محارب شقي!

المنطلق استعماري

نعم، فبداية أمريكا كانت نتيجة فكرة استعمارية، حين خرجت الأفواج الأولى من أوطانها قاصدة أمريكا بفكرة الاستعمار والمنافسة والصراع، ثم قاتلوا جميعًا سكان البلاد الأصليين (الهنود الحمر)، ثم قاتل العنصر الأنجلو-سكسوني العنصر اللاتيني هناك، وطرده إلى الجنوب في أمريكا الوسطى والجنوبية، ثم حاربوا أمهم الأولى إنجلترا في حرب التحرير بقيادة جورج واشنطن حتى نالوا استقلالهم عن التاريخ البريطاني، ثم حارب الشمال الجنوب بقيادة إبراهام لنكولن، تلك الحرب التي اتسمت بسمة (تحرير العبيد)، وإن كانت دوافعها الحقيقية هي المنافسة الاقتصادية؛ ذلك أن العبيد المستجلبين من أواسط أفريقيا ليعملوا في الأرض رقيقًا لم يستطيعوا مقاومة الطقس البارد في

الشمال، فنزحوا إلى الجنوب، وكان معنى هذا أن يجد المستعمرون في الولايات الجنوبية الأيدي العاملة الرخيصة، على حين لا يجدها الشماليون، فيتم لهم التفوق الاقتصادي؛ لذلك أعلن الشماليون الحرب لتحرير العبيد، كما ذكر ذلك سيد قطب.

وانقضت فترة العزلة وانتهت سياساتها، عندما دخلت أمريكا الحرب العالمية الأولى، ثم اضطلعت بالحرب العالمية الثانية، ثم نهضت بالحرب في كوريا، وها هي حرب الخليج الأولى والثانية، والحرب على أفغانستان، وحروب في كل مكان تقودها أمريكا في كل زمان تتوالى، تحدوها راية الجيوش الأمريكية!

الضعيف لا يُرحم

الويل لمن سقط أو تراجع أو ضعف، هذه قاعدة تعيشها في حياتك اليومية في أمريكا خاصة في أماكن العمل والدراسة، ولا تسألن عن سكاكين الشماتة تذبح كل من وقع.

ذلك أن الحيوية المادية عند الأمريكي مقدسة، والضعف -أيًا كانت أسبابه- جريمة، جريمة لا يغفرها شيء، أو كن ضعيفًا فلن يسعفك مبدأ، ولا يكون لك مكان في مجال الحياة الفسيح.

كنت أشاهد الطالب يلهث كل السنة لينجح، فإن جاء موعد امتحانه وتلعثم أو أخفق ترى البقية يقهقهون بلا رحمة، يشمتون بلا رأفة، وكأنها فرصتهم للنيل منه رغم أنه قبل أيام قليلة كان حبيب الكل. أما إن أبدع ونجح فلا تسأل عن نظرات الإعجاب والإطراء والاحترام الذي سيحظى بها بإغداق، وكلما ارتقى في الدرجات كلما كسب القربات، ولكن لابد له من الحذر فتكفي غلطة واحدة لِيُهان وتداس كرامته بلا أدنى شفقة! فكم هو بشع ذلك العالم!

السخرية في غير محلها

إن أكثر ما يدفع للاشمئزاز في المجتمع الأمريكي تلك السخرية التي تأتي في غير محلها، كالسخرية من ميّت أو الضحك من مصاب أو مبتلى أو ازدراء ضعيف، قد شاهدت هذا كثيرًا في حياتي اليومية، وكنت أتعجب من قسوة القلب ممن يشاهد الموت بعينه ولا يتأثر، أو يعيب على معاق أو يستهزأ بمصاب!، ولطالما استمعت لأحاديث الطالبات في قاعة الطعام أو حين الاستراحة يقضين الحديث في السخرية من شخص بعينه، تحديدًا في ذم خلقه وشكله، وهذه تعكس انحطاط القيم الإنسانية عند شعب شغف حبًا بالماديات.

نظرة للمسنّة

كنا في فريق للدعوة نحاول أن نبر كل المسلمين في المستشفيات؛ فنقيم زيارات خاصة بالمرضى، وكذا المسنين الذي يقبعون في مستشفيات خاصة يعانون حالات ميؤوس منها، فنذكرهم بالله ونهون عليهم صعاب الحياة ونسمعهم آيات القرآن، ومنهم من يطلب رقية شرعية، وعلى هذه الوتيرة كانت يوميات الداعية.

ولكن في يوم لا أنساه ولا أستطيع نسيانه! زرنا امرأة مسلمة مسنة مصابة بمرض سرطان وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، جلسنا حولها لنسمعها كلمات تذكرها بالله فانشرح صدرها للقول وسماع ذكر الشفاء، لقد كانت الدموع تنساب منهمرة من مقلها كأن حالها يقول: كم ضاع من عمري في هذه البلاد ثم ها أنا على سرير بارد في مكان بارد من كل المشاعر نعامل فيه معاملة الآلات!

لقد كنت أتأمل في كل كلمة تقولها وألمح الحسرة عند كل حرف، وكم كان مؤسفًا أن تكون هذه المرأة بدون أهل يدفئون قلبها في وقت شدة وعسر، وكانت الممرضة المكلفة بالعناية بها من الصفاقة بمكان؛ لقد كانت قاسية بشكل واضح، وتتعامل بتأفف وتذمر، وتشعر أنها تتمنى موتها حين تناولها الدواء، وقد تخرج وهي تضحك وتبتسم في حين المريضة تئن من الآلام!

بعدما خرجنا من المكان كانت سيارتي مصفوفة على شارع يطل على غرفة المسنة الزجاجية، وما أن جلست في مقعدي لأتحرك، هالني منظر المرأة الباردة، لقد كان الوقت ليلًا وغرفتها مضاءة والمنظر شديد الوضوح، لقد كانت وكأنها تحتضر، وكل شيء من حولها بارد، لا أجد أبلغ من هذا المصطلح! فاستعذت بالله من أرذل العمر وشعرت بالألم لحالها ووحدتها! ولا أدري لمَ تعمد المستشفى وضعها في غرفة زجاجية كاشفة من الخارج! هل هي قسوة القلب الأمريكي أم الرغبة في الشماتة!

ولا زالت تلك اللقطة عالقة في ذاكرتي تحضرني في كل مرة، تدفعني للتفكر والتأمل في نهاية مسلمة في بلاد أمريكا.

واقع مؤسف

وقد كانت لي صديقة، بالرغم من أنها طبيبة من بلاد عربية، إلا أنها وللأسف اختارت لنفسها أن تعمل في تنظيف المسنين وتغيير حفاظاتهم في كل يوم! ذلك لأنها لم تجد وظيفة أقرب لاختصاص الطب الذي درسته من تلك الوظيفة على حد تعبيرها، وربما الراتب السخيّ بالمقارنة مع غيرها من وظائف عملت فيها كانت دون المستوى المرجو لطبيبة مغتربة تبحث عن حياة أرقى من حياة المسلمين المتأزمة،

وكانت تحكي لي حكايات تشيب لها الولدان من العقوق الذي يعانيه المسنون، ومن الخوف والتيه والحالات النفسية المعقدة، كل هذا في مجتمع يفتقد للإنسانية، فبقدر ما دفعت لدور المسنين بقدر ما تحظى بالعناية، وهكذا يلهث الأمريكي طيلة حياته ليجمع ما يحفظ له نفسه في آخرها حين يقبع في دور الموت البطيء الباردة.

طريف ولكن للتأمل

وكم كان طريفًا لقائي مع تلك المرأة الأمريكية التي تجاوزت الستين من عمرها، وكانت تعد نفسها لمرحلة عمرية جديدة، سألتها ماذا تخطط لمستقبلها. فقالت: "سأعيش الثلاثين سنة مقبلة في رفاهية التقاعد وقد وفرت الكثير من المال الذي سيضمن لي إقامة مريحة في دور المسنين". لقد قالت هذه الكلمات وهي تعتقد تمام الاعتقاد أنها ستعمر للتسعين كما عمرت والدتها من قبل. فحدثني عن طول الأمل أحدثك عن هذه الأمريكية!

الحديث عن الشعب الأمريكي يحتاج تفصيلًا أكثر، وسردًا للأمثلة أوضح، وهذا ما سأتناوله بذاكرة مثقلة فيما يتقدم إن شاء الله.

مشاهدات من واقع الأسرة والمجتمع الأمريكي

لقد كان أمرًا غير مألوف أن ألتقي أمهات بأبناء ولكن غير متزوجات؛ ذلك أنني قدمت من مجتمع مسلم لا يقر الزنا، ويقر أن الزواج هو الرباط الوثيق قبل قدوم أي طفل، ولكنني صادفت الكثير من الأمريكيات البائسات اللواتي يندبن حظهن في العيش كأسر مبتورة تفتقد للأب؛ فالآباء أو الوالدون كانوا يتنصلون من واجبهم الأبوي، وحين يزف له خبر ولادة ابن أو ابنة، يتهرب من لقائه ومن تحمل مسؤوليات تجاهه.

الحنين للاهتمام

ولا أنسى تلك الجارة التي سكنت بقربها، وكان لديها ولد في عمر الخامسة، فكان أن دخل عليّ وعندي حبات من الشكولاتة، فأعطيته منها فما لبثت إلا ورأيتها تدق بابي وتشكرني جزيل الشكر على إبداء الاهتمام بابنها، لقد كانت تعكس حالة من الحنين للاهتمام تثير الإعجاب، شكرتني بشكل مبالغ فيه وكأنني أقدمت على فعل عظيم، وما كان إلا مجرد حبة شكولاتة، لكنها في عينيها كانت تعني أكثر من ذلك؛ فابنها هذا لم يحظَ باهتمام أي شخص من عائلتها، ولم يسبق أن تلقى هدايا أو أي محبة تذكر من والده الذي لا يعرف أين هو!

تهرب من المسؤوليات

المساعِدة التقنية في الجامعة كانت تعاني نفس المأساة بابن من أب فرّ منذ أول لحظة علم فيها بحمل صاحبته، وتركها تواجه صعاب الحياة لوحدها؛ لهذا فإن الحكومة الأمريكية تخصص المنح التي تقدم للأطفال باسم الأمهات لكثرة الأطفال بدون آباء كنوع من حفظ للحقوق! وقد سألتها يومًا هل تتمنى عودة والد ابنها ليعيش معهما، فقالت لي وهي متأثرة بشكل واضح: "أتمنى ذلك وأرجوه وأحلم باليوم الذي نعيش فيه كعائلة واحدة ينعم فيها ابني بوالده، ولكن صاحبي رفض كل عروضي له حتى في كوني سأتحمل جميع تكاليف المعيشة، لقد فر فرارًا إلى حياته المليئة بالحريات التي يخشى أن يحرمه إياها طفله!"

اتفاق غريب

هكذا هي الأسر في أمريكا، وإن كانت هناك أسر تعرف التكوين الطبيعي من زوج وزوجة وأبناء فهي بلا شك تعاني مشاكل من جانب ما، فلا زلت أذكر تلك الدكتورة الباحثة التي كنت وإياها نخرج من المطار لنتجه إلى منازلنا بعد حضورنا مؤتمرًا علميًا. ثم بينما نحن في طريق العودة، كانت تتصل بزوجها

تستأذنه في الرجوع للبيت! كان هذا تصرفًا مريبًا جدًا، ولكنني علمت من المقربات منها أنها تعلمه بهذه الطريقة عن قدومها حتى يفرغ بيتها من العشيقات، إذ أنها تعلم يقينًا أنه مع إحداهن وفي غرفتها، ولكنها لا تريد أن تحرجه فتسبقه بالسؤال كي يتدارك نفسه ولا تراه في منظر انحطاط عند دخولها منزلها، وحين سألتها عن حياتها هل هي سعيدة مع زوجها أخبرتني أنهما عقدا اتفاقًا، ينص على الاحترام والحرية؛ بمعنى أنها زوجته على الورق وأمام العائلتين، ولكن في حياتهما فليعش كل منهما كما شاء دون أن يفضح نفسه! ذلك أن لكل منهما مكانة مرموقة في المجتمع ولا يريدان إفسادها، لقد كان بحق اتفاقًا غريبًا يُبرم بين زوجين. ولكنها حالة من حالات الزواج الفاشل الكثيرة التي صادفتني في طريق اكتشافي لأمريكا.

فوضى العلاقات

يعيش الكثير من الشباب والشابات في علاقات غير رسمية بفوضى عارمة، وقد سألت يومًا إحدى الطالبات معي إن كانت تحب رفيقها وتنوي الزواج منه، فقالت لي: "لقد أحببته أول سنة، ولكن الآن في السنة الثانية بدأت أمل منه وأتذمر من أنفه الكبير، وأفكر في الانفصال؛ لكنني لم أجد بعد فرصة أفضل، ثم بلا شك سأنفصل عنه فقد ضقت ذرعا بهذه العلاقة، وما جعلني أتريث هو كونه يتقاسم معي مصاريف الإيجار والطعام والمعيشة"!

أما أمريكية أخرى فسألتها عن سر احتفاظها بعلاقة مع صاحب له الكثير من العشيقات، فأخبرتني أنه أحسن حالًا من غيره، وكونها تعرف حاله خير من أن تعاشره وهي تجهل ما يفعل في حياته الأخرى!

الأصل في العلاقات

نعم، هكذا هي العلاقات بين الذكور والإناث تسير بشكل فوضوي، لا تعتمد المشاعر الإنسانية بقدر ما تتبع الشهوة الحيوانية، لا يحترم فيها الأمريكان الجوار، ولا يبالون بالمارة، ولا يهتمون لمن يرمقهم في مكان عام!

حين تمشي في محطات المترو أو تركب في القطارات أو في الساحات العامة والحدائق الخضراء، لا تتفاجأ بمناظر مقززة في أي وقت كان، وإن كان في الصباح الباكر. أناس لا يعرفون أصلًا لقواعد السلوك، ولا لآداب المجتمع، ولا لروابط الأسر والأفراد، تنشغل المرأة بفتنة الجسد وحدها، عارية من كل ستار، مجردة من كل حياء، وينشغل هو بقوة الجسد وضلاعته بلا أدنى معنى للرجولة! لقد كان مفاجأ لي حين ركبت في أحد الباصات فوجدته مملوءًا بفتيات بفساتين السهرة المكشوفة غير الساترة مع شباب

ببـدلات وربطـات عنق وعطور تفوح في المكان، تعجبت كثيرًا أن يركب هؤلاء في باص عمومي لوجهة الحفلـة! ولا أتحدث فقط عن المنظر، بل عن التصــرفات التي لا تراعي حرمة لمكان عام وهم لا يزالون في بداية طريقهم للحفلة، فكيف سيرجعون بعد خمر ورقص وفجور؟!

خلاصة المتابعة

وخلاصــة متابعتي لإجابات الفتيات اللاتي عرفت في أمريكا، فإن العلاقة تعتمد أســاسًــا على روابط الجسد والحس الهائج... ولهذا لا تستمر العلاقات طويلًا أو سريعًا ما تنتهي بخيانة ما، وتسقط الفتاة في الإدمان وشــرب المخدرات والخمر، أو إن تمكنت من اجتياز المرحلة تكون قد حملت في قلبها شــرخًا كبيرًا تحاول مداراته بخيانات أكثر، وكذلك الرجل إن تركته صاحبته!

نشر للرذيلة

ولا يتفـاجـأ النـاس بـأولئـك الذي يقفون في محطات المترو أو عند بوابات الجامعات أو المعاهد لتوزيع كتيبات تثقيف جنســية، وقد اســتغربت كثيرًا هذه الظاهرة، وما زاد من غرابتي أنني علمت أنها تصــل حتى المدارس الابتدائية؛ فقد كانت لي صديقة ابنتها في عمر التاسعة، دخلت على والدها بكتيب يشرح العلاقـة الجنســية بحذافيرها، وأهدتها المعلمة معه عينات عن الوســائل التي تســتعمل في مثل هذه العلاقات! فجن جنون الأخت المسـلمة، وكان هذا سـببًا كافيًا لأن ترجع لبلادها وهي تسـب على أمريكا وحرياتها المجرمة!

سطحية نكدة

وفي الواقع، تفتقـد العلاقـة بين الفتى والفتـاة للجـديـة التي تُنتظر من علاقـة بين اثنين. ففي يوم من الأيـام كانت معنا طالبة في الجامعة اشــترت لتوها أريكة ثمينة لصــاحبها، وحين اختلفت معه طالبته بسـرعة أن يعيد لها الهدية الثمينة، وكانت تقول سأضعها في شقتي وأتمتع بها بدلًا منه، أو أتشاركها مع صــاحبي الجديد! فعجبت لهذه الطريقة في التفكير حينما تنتهي بهذا الشــكل علاقة جمعت اثنين لمدة أكثر من سنتين! والأمثلة على سطحية العلاقات تطول.

الشذوذ

أعتقـد أن هـذه المظـاهر آخذة في البروز شــيئًا فشــيئًا في المجتمع الأمريكي، لقد هالني منظر رجلين يمسـكان بأيدي بعضهما البعض وقد خرجا من أحد المباني الحكومية يحملان باقة من الورود ويتبادلان

التهاني، لقد عقدا عقد زواجهما، كان حقيقة منظرًا مقززًا، كدت أن أتقيأ، شيء مغاير تمامًا للفطرة، ولكن الأمر أصبح مستفحلًا، وبدأ الأمريكان يعتادون عليه كأمر طبيعي في حياتهم اليومية، حتى في المدارس والحضانات كانت تشتكي بعض المسلمات من معلمات يحدثنهن عن حرية الشذوذ، وأنهن قادرات على تمييز الطفل الشاذ منذ عمر صغيرة، وكم كان صادمًا لتلك الأخت المسلمة التي حدثتني قصتها وهي تبكي!! تقول إن المعلمة التي تتولى تربية ابنتها في الحضانة أخبرتها يومًا بكل سرور أنها اكتشفت بأن ابنتها تميل للبنات أكثر من الذكور، وطالبتها بأن لا تقف أمام هذا الشعور وتغذيه ولا تحرمها الحرية الجنسية عندما تبلغ!!

جاليات مسلمة في خطر

وكانت نصيحتي للأخوات المسلمات أن يتوقفن تمامًا عن إرسال أبنائهن وبناتهن لمثل هذه الحضانات والمدارس، وأن يكتفين بتعليمهم في البيوت أو مدارس إسلامية مخصصة. كما أنني لاحظت الاستهانة بأكل الحرام عندما يُترك أولاد المسلمين يأكلون من نفس طعام الأمريكان في الحضانات والمدارس! ولا يجد لهذا المأزق من تفسير عند الآباء سوى أن للضرورة أحكامًا، فأي ضرورة تبيح حرامًا وأنت مخير بأن تأكل ما تشاء إن أردت ذلك!

مستقبل العلاقات

نسبة قليلة تنتهي بالزواج، والغالبية تنتهي بالافتراق، هذا حال أغلب العلاقات. ثم بعد عمر تظهر فيه ملامح العجز عند المرأة لا تسأل عن قصص الوحدة والغربة، لقد شاهدت نسبة كبيرة من النساء الكهلات اللاتي يعشن لوحدهن مع ذكريات الشباب، كل واحدة كان لها أكثر من صاحب، ولكنها لم تتمكن من إقناعه بالزواج أو إقامة علاقة رسمية والاستمرار، وكثير منهن يلجأن لتربية الحيوانات، وللعمل بكثافة أكثر من الساعات المعتادة، وقد تجدها تقضي وقتها في دور السينما أو في الملاهي أو أي مكان تحاول أن تنسى فيه واقعها البئيس. وقد كنت أرى في أعينهن إحساس الفشل في الحياة، فالفشل الأسري يعد فشلًا حقيقيًا عند المرأة حين تنتهي حياتها وليس لديها ولد أو أنيس أو عائلة تدفأ مشاعرها في وقت هي بأمس حاجة لهذا الإحساس.

نماذج تعد ناجحة

في المقابل، هناك بعض الأسر استطاعت أن تحفظ بنيانها، ولكن غلبت على العلاقة الماديات؛ فرابط المنفعة المادية كان أصلب شيء في إقامة هذه العلاقة، وقد لاحظت أن الانسجام المادي بين الطرفين

كان ســببًا لاســتمرار العلاقات من هذا النوع، فحفظ خط معين من الحياة الرفيهة وتناغم المشــاركة المادية يجعل بعض العلاقات تستمر بقوة وبانتفاع.

ولا شك أن هناك نماذج لزواج ناجح لكنها قليلة جدًا مقارنة مع نسب الفشل والفوضى فى طرق تأسيس الأسر والنسيج المجتمعى فى أمريكا.

الدين في حياة الأمريكي

كنت أعتقد أن الأمريكان شعب يؤمن بدين المسيحية التي أضحت نصرانية في زماننا اليوم. وهذا ما كنت أتوقعه حين وصلت لأرضه، لكنني تفاجأت أن أغلب الأمريكان الذين التقيتهم لا علاقة لهم بالدين، ولا بالكنيسة، بل وجدت من كان ينقم عليها أشد النقمة، وقد بدل النصرانية إلى ديانات أخرى كالبوذية.

ديانة القوم

ورغم أن النصرانية هي الديانة الأكثر شيوعًا مع نحو ٧٣,٧% من الأمريكيين عرّفوا أنفسهم بأنهم «مسيحيون» حسب دراسة لمؤسسة (غالوب) في عام ٢٠١٦. ومنذ منتصف ١٩٩٠ والولايات المتحدة تضم أكبر عدد من السكان المسيحيين على وجه الأرض مع ٢٢٤ مليون مسيحي.

إلا أنه من الناحية الرسمية، فإن دستور أمريكا يعترف بكونها دولة علمانية، ويعرضها كدولة لا تلتزم ديانة بذاتها، على عكس المشاهدات الواقعية التي تؤكد أن الاتجاه السياسي للحكومة بات جليًا بأنه اتجاه صهيوصليبي بامتياز.

تاريخ المسيحية (النصرانية) في أمريكا

وصلت المسيحية إلى أرض أمريكا مع المهاجرين الأوروبيين الجدد الذين وصلوا تلك الأرض لاستعمارها، وذلك منذ بداية القرن السادس عشر والسابع عشر. وينتمي معظم مسيحيي الولايات المتحدة إلى الكنائس البروتستانتية التي تنقسم بين تقاليد الخط الرئيسي والإنجيلية، والكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

وحسب دراسة مؤسسة (غالوب) في عام ٢٠١٦، مثّل البروتستانت ٤٨,٩%، في حين تمثل الكاثوليكية ٢٣,٠%، وهي أكبر فئة فردية. وحسب دراسة تعود لمركز (بيو) للأبحاث لعام ٢٠١٤ تعد البروتستانتيَّة الإنجيلية أكبر مجموعة دينية في البلاد مع حوالي ٢٥,٤% من السكان.

وتقدر دراسة أخرى الإنجيليين من جميع الأعراق بنسبة ٣٠-٣٥%، في حين تمثل كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة (المورمون) ١,٦%، وهي رابع أكبر كنيسة في أمريكا، وأكبر كنيسة ناشئة في أمريكا.

ظاهرة الكنائس

ورغم أن الكنائس منتشرة بشكل ملفت، وأن شعائر الاحتفالات الدينية تجمع الناس تحت سقفها، بما في ذلك الأعراس والمآتم، فإن حقيقة التزام الأمريكي بدينه أمر يدعو للتأمل، إذ أن أغلبهم غير مؤمن -وإن كان يدخل كنيسة-.

ثم ما يزيد الأمر تعقيدًا وجود تنافس كبير بين الكنائس المختلفة المذاهب. تعرف ذلك من خلال النشرات المكتوبة، والأنوار الملونة على الأبواب والجدران للفت الأنظار، وأنواع البرامج الجذابة لاهتمامات الجماهير... وكأننا في سوق تجاري يسوده التنافس.

ويرجع ذلك إلى انقسام المجتمع المسيحي إلى ثلاث مجموعات كبيرة؛ وهي البروتستانتية الإنجيلية، والبروتستانتية الخط الرئيسي أو البروتستانتية التقليديَّة، والكاثوليكية. بالإضافة إلى الطوائف المسيحية التي ترتبط مع الأقليات العرقية، مثل مختلف الطوائف الأرثوذكسية الشرقية، والكنائس المسيحية الشرقية المختلفة.

وفي مسح أُجري عام ٢٠١٤ من قبل مركز (بيو) للأبحاث، وجد أن النسب المئوية لهذه المجموعات كانت على التوالي: ٢٥,٤% ينتمون إلى المذاهب الإنجيلية، وحوالي ٢٠,٨% ينتمون إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وحوالي ١٤,٧% إلى الكنائس البروتستانتية التقليدية. لكن مع تواتر الملاحظة رأيت أن الكنيسة والالتزام بالشعائر الدينية لا يعدان كونهما تقليدًا اجتماعيًا، ومكانًا للقاء والأنس عند الأمريكان أكثر منه اجتماعًا روحيًا يقدس الدين وقيمه.

الحزام الإنجيلي الأكثر التزامًا بالطقوس الدينية

وقد وجدت مؤسسة (غالوب) أن ٤١% من الأمريكيين هم ممارسون بشكل دائم للشعائر الدينية، وأما حضور القداس والكنيسة فيتفاوت كثيرًا من ولاية لأخرى، ويبرز أكثر جنوبًا من تكساس إلى أوكلاهوما، أين تقع الأقاليم جنوب شرق إلى وسط جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، وفيها البروتستانتية الإنجيلية هي الغالبة اجتماعيًا؛ لهذا يطلق على هذه الأقاليم بالحزام الإنجيلي.

وحضور القداس والكنيسة يتفاوت كثيرًا من ولاية إلى ولاية، ففي استطلاع أجرته مؤسسة (غالوب) عام ٢٠٠٦، قال إن ٤٢% من الأمريكيين ترددوا على الكنيسة أو المعبد مرة واحدة في الأسبوع أو كل الأسبوع تقريبًا. وتراوحت الأرقام بين ٥٨% في ولاية لويزيانا وألاباما وكارولينا الجنوبية، إلى ٢٤% في ولاية فيرمونت ونيوهامبشير.

النشاط التبشيري

ولم تكن تخلو الشوارع من مبشرين، فقد كنت أشاهد الكثير من الأقباط والمصريين ممن يتقنون اللغة العربية ويدعون كل من ليس نصرانيًا لديانتهم، ويوزعون المنشورات، بل ويستدلون بالقرآن الكريم في دعوة الناس.

وقد لاحظت أن هؤلاء المبشرين لا يملكون قوة الحجة، ففي أحد الأيام طرحت أسئلة على إحدى المبشرات التي دعتني للنصرانية وهي تستدل بالقرآن الكريم، فلم تتمكن من الإجابة عليها وقالت لي تهربًا: لن يجيبك على أسئلتك إلا القسيس بنفسه، فقلت هذا رقمي فليتصل بي وأنا جاهزة لنقاشه، ولكنها اختفت ولم أرَ لها أثرًا بعد ذلك اليوم، قلت: لعلها أدركت أنني لم أكن أريد إلا إقامة الحجة عليهم وأنني سأكون عقبة، فالأفضل تجاوزها!

التبشير يتخذ أشكالًا متعددة، وقد تفاجأت يومًا حين اتصلت بمؤسسة لرعاية الأيتام في أفريقيا، أنهم رفضوا طلبي في حضانة طفل أفريقي من أصل مسلم لأنني حين ملأت الاستمارة حددت ديانتي الإسلام، ويبدو أنهم لا يقبلون إلا ديانة النصرانية لحضانة هؤلاء الأيتام!

النصارى العرب

معرفتي بالنصارى العرب كانت تسمح لي بإجراء مقارنة مع النصارى الأمريكان، فقد كنت أشاهد النصارى العرب بأنفسهم ينظرون للأمريكان كشعب متخلٍّ عن دينه، ولا يمثل لهم الدين غالبًا أكثر من لقاءات ومرح واحتفالات، أو تعزية.

أعياد النصارى

هناك تقديس ملحوظ لأعياد النصارى كعيد الفصح، وعيد الميلاد، وعيد الهالويين والفالنتاين داي، ففيها يجتمع الأمريكان جميعًا في الفرحة واللهو بغض النظر عن إيمانهم بالدين والتزامهم قيمه أم لا. ثم للأسف يجتمع معهم حتى المسلمون!

لقائي مع الراهبة

كنت متجهة إلى ديترويت بالطائرة، وركبت بجانبي راهبة مسنة تبدو في السبعينات من عمرها، وكنت حينها أستمع القرآن فلم أكن أعرها أي اهتمام، لكنها لم تكن تستطع أن تحول بصرها عني؛ لعل الحجاب

أثـار بغضــها؛ لأن الكراهية كانت واضــحة في عينيها. وكنت أتعجب من هذه النظرات؛ فكســرت ذلك الجمود بأن فتحت الحديث معها، وسـألتها هل هي راهبة؟ فاسـترخت ملامح وجهها حين رأتني أحدثها بلغتها فانطلقت في تبادل الحديث معي، ولا أشــك أن هذا الجمود وهذه الكراهية كانت بســبب خلفية مرعبة تحملها ذاكرة هذه الراهبة عن المسلمين.

لقد كانت بالفعل متوجســة مني خيفة، ثم بعد أخذ ورد، شــعرت أنها اســترخت أكثر وبدت أكثر تقبلًا لوجودي بجانبها، وحين كان وقت الخروج من الطائرة كانت لا تنفك تتبعني بنظراتها حتى اختفيت بين الزحام! لقد كان واضحًا اهتمامها بي كمسلمة.

على عكس تلك، الراهبة التي اسـتقبلتنا في الفندق الذي نزلنا فيه خلال سـفر لنا مع بعض الطالبات في الجامعة، وكانت هذه الراهبة مسؤولة عن استضافتنا وتسهيل أمورنا، ولكن ما فاجأني كان تلك الكراهية التي تقدح بها شررًا! وكم كانت تحاول تفادي محادثتي أو مجرد النظر إليّ!، لقد كانت تفر مني فرارًا في كل مرة تراني فيها، لأنني كنت المسلمة الوحيدة بينهن!

نقاشي مع دكتورة تحولت عن النصرانية

كانت في الخمسـينيات من عمرها، قد أرهَق بصـرها طولُ البحث والدراسـة التي قضـت جلّ عمرها في انشغالٍ بهما؛ ما جعلها تلبس نظارات سميكة لعلها تخفي شقاء السنين. وقد عُرِفت هذه الدكتورة بنباغة واجتهـاد في مجـال البحـث العلمي، وحـازت على العـديـد من الشــهـادات والمنح والأوســمـة العالمية والمحلية، وكانت تُســتدعى للقاءات دولية في مؤتمرات شــتى، واجتماعات حية على الأثير كي تقدم الشروحات والتفاصيل عن آخر البحوث العلمية.

كنا نتناقش معًا في كل شيء، ولكن أبرز نقاش لي معها كان عن سبب تركها النصرانية وتوجهها للبوذية، فقالت لي مفصحة بألم بدا ظاهرًا على ملامح وجهها: لقد سئمت من كذب الكنيسة وتلاعب رجال الدين بعقولنا، لقد ازدروا فهمنا أمدًا من العمر، فإن تمكنوا من اسـتغفال آبائنا فلن نسـمح لهم بأن يسـتغفلونا اليوم. نعم، صُدمت بالفرق الشاسع بين الحقائق العلمية الحديثة وبين ما يحاول أن يرسخه القسيسون في أذهاننا، وهو مخالف للحقيقة والواقع.

هـذه كـانـت تعليقاتها، وقد كانت مســترســلة في ســردها بشــكل عجيب، وتظهر على ملامح وجهها وتجاعيدها آثار الانزعاج. وحين سـألتها لماذا ذهبت للبوذية تحديدًا أخبرتني أن السـبب واضـح، هي لا تريـد أن تخير بين نـار وجنـة، لا تريـد أن تعلم أن هنـاك حســابًا في آخر الحياة، تريد أن تكون مطمئنة

لمصيرها بغض النظر عن فعالها. لقد سئمت التحذير والترهيب، وبدت فاقدة الثقة بالكنيسة، كانت تنتقد بقوة أولئك الذي يضعون أنفسهم في موقع حلقة الوصل بينهم وبين خالقهم، ويتدخلون في كل صغيرة وكبيرة، ثم هم بأنفسهم ليسوا قدوة، ويُعرف عنهم كل السقطات المشينة والذنوب غير المغفورة! فعن أي قسيسين «نبلاء» نتحدث؟!

ثم بعد حديث طويل وتجاذب، أقرت لي أنها ستحفظ حق أهلها في دفنها على طريقة النصارى على غير عادة البوذيين؛ فقط حفظًا لمشاعرهم، لكنها أعلمت الجميع أنها ستموت كافرة بالنصرانية التي بها يدينون.

وكانت لا تفوت عيدًا للنصارى إلا واحتفلت به وتهادت وأهدت خلاله الهدايا. لقد كانت ملتزمة بمشاركتهم أفراحهم، وفي نفس الوقت تؤدي الطقوس الغريبة والشاقة التي يعرفها البوذيون، ثم كانت قادرة على أن تسافر إلى بلاد بعيدة جدًا فقط لأداء طقوس فيها من الشقاء ما فيها.

الدعوة للإسلام

صادفت الكثير من النصارى الأمريكان؛ الذين يودون تعلم الإسلام، وبنفسي لقنت فتاتين أمريكيتين الشهادتين، لقد كان موقفًا لا يُنسى، يدخر في ذاكرة الزمن إلى يوم لقاء الله، كان تعليق كل منهما ذاته: «لقد ولدت من جديد!».

بكاء شديد وحنين أشد للعناق، بإخوة الدين والمسير، كانت هذه أجواءنا حين تدخل امرأة جديدة للإسلام، وكن غالبًا قد بحثن عن الدين بأنفسهن بعد معركة مع الذات وبحث عن طريق للخلاص.

الأولى عرفت الإسلام عن طريق البحث في الإنترنت، فاقتنعت به وجاءت تشهر إسلامها، أما الثانية فقد أحبت شابًا مسلمًا عربيًا لكنه لم يكن ملتزمًا، ومع ذلك كان يغضب للإسلام والمسلمين، فأثار هذا فضولها واندفعت تبحث عن دين يجعل صاحبه -وإن كان لا يلتزمه- يحبه كل هذا الحب، وفعلًا اهتدت للإسلام، وكانت آخر رسالة منها لصاحبها الذي تركته بعد التزامها أن الإسلام يحرم الزنا والعلاقات التي لا تكون بزواج شرعي؛ فلهذا ستتوقف عن مواعدته، وإن كان يريدها فباب الحلال مفتوح!

وفعلًا انطلقت هي في حياتها والتزمت الحجاب وتعلمت الدين الجديد، ولكنه بقي على حاله مغبونًا، وألف حياة القعود والخمول. فسبحان من هدى بضالٍ ضالًا!

لم ينتهِ الحديث عن الدين في أمريكا، وسألقي الضوء في صفحات مقبلة على حقائق أخرى مختلفة؛ تسمح لنا برسم تصور دقيق عن واقع الدين في حياة الأمريكان.

الدين في حياة الرؤساء والقادة الأمريكيين

لم تكن سياسة البيت الأبيض في يوم من الأيام بمنأى عن التأثير الديني والاتجاه النصراني المسيحي لساسة الدولة، ويكفي أن نعلم بأن الآباء المؤسسين للولايات المتحدة كانوا قد تأثروا عند كتابة دستور البلاد بتعاليم الكتاب المقدس والقيم المسيحية، حسب ما ذكرت ذلك الموسوعة البريطانية.

كما يبدو واضحًا تأثير اليمين الإنجيلي أو اليمين المسيحي منذ سبعينات القرن الماضي على الحزب الجمهوري، وهو الذي كان وراء انتخاب جيمي كارتر عام ١٩٧٦، وجورج بوش الابن سنة ٢٠٠٠.

اليمين المسيحي

هو تحالف غير رسمي يعتمد على البيض الأمريكان، البروتستانت الإنجيليين، يدعمهم بشكل متفاوت الكاثوليك المحافظون ثم البروتستانت التقليديون واليهود والمورمون المحافظون.

وهو اليمين نفسه الذي يجهد خلف تعظيم شعائر النصارى في الصلاة في المدرسة، وصاحب النظرة المحافظة حول أبحاث الخلايا الجذعية، وهو الذي يقف ضد المثلية الجنسية ووسائل الإجهاض وغيرها من مسائل تعتبر خارج مباح المحافظين.

دور الدين في سياسة الدولة

لا تنفك ملامح الدين تبرز في مظاهر الحكم في أمريكا، فالشعار الرسمي للدولة هو: «إننا نضع ثقتنا في الله»، وهي ذات العبارة التي تم طبعها في العملة الورقية الرسمية للبلاد «الدولار»، نجدها مثبتة أيضًا خلف منصة الرئيس داخل مجلس النواب الأمريكي، وأيضًا محفورة فوق مدخل مبنى مجلس الشيوخ، ما يعكس ماهية عقيدة الساسة وكيف يرتبط الدين بسياسة الأمريكان.

وفي قَسَم الولاء الرسمي، يجب أن يردد الأمريكيون نداء «في عهدة الله»، دون الحديث عن أعياد ولقاءات الدين الممجدة خلال السنة الواحدة، والتي يشارك فيها الساسة الأمريكان بتقديس وانضباط واضحين.

فاليوم لا يوجد تقريبًا أى مظهر من مظاهر الحياة السياسية إلا ويكاد يتأثر بالدين فى أمريكا.

رؤساء مسيحيون

ثم يكفي النظر في تصـريحات رؤسـاء أمريكا على مر الأزمنة واختلاف الأزمات في العالم، كانت تصريحات تنبض بالإيمان المسيحي بامتياز، ومن ينسى تصريحات بوش الابن إبان حرب الخليج؟ وكذا تصـريحات بيل كلنتون في حربه على الصـومال؟ ومن قبلهما من رؤسـاء على رأسـهم الرئيس جورج واشنطن في ١٧٨٩، الذي -فور استلامه رئاسة البلاد- كرس يومًا خاصًا لتقديم الشكر والصلاة لأن الله أنعم على بلاده بحكومة جمهورية تستحق الامتنان؟ وحين فاز أيزنهاور بمقعد الرئاسـة في عام ١٩٥٣، وصار بطلًا يدافع عن المثل الدينية المحافظة، في خطابه الافتتاحي لاستلام منصب الرئاسة استهلّه بالقول:

«هل تسمحون لى أن أتشرف بتلاوة صلاة شخصية قصيرة»

ثم استمر لأكثر من دقيقة يتوسـل إلى الله طالبًا منه نشـر التعاون والتفاهم بين الناس، مهما اختلفت مصادر إيمانهم «السياسي». وقبل أن يستلم ريغان مقاليد الحكم كان ما يقارب النصف من الخطب الرئاسية تقريبًا ينتهي بتعابير الابتهال والتوسل إلى الله، ولكن هذه النسبة وصلت إلى أكثر من ٩٠% بعد توليه الرئاسة.

ولم يكن حال رونالد ريجان إلا مثالًا دامغًا على هذا التأثير العميق للدين على سياسة أمريكا وساساتها، فقد أعلن بوضوح في سنة ١٩٨٠م بعد مؤتمر ترشيحه للرئاسة أنه سيؤيد تمامًا الأجندة الأخلاقية لليمين المسـيحي، فحظي بدعم غير محدود من منظمة «الأغلبية الأخلاقية» – بحشـد ثلاثة ملايين ناخب أمريكي لمساندته في الانتخابات.

دعم اليهود

كما قام ريجان بزيارة المنظمة اليهودية «بناي برث» في واشـنطن، وذلك أثناء حملته الانتخابية، وخطب هناك قائلًا: «إن إسرائيل ليست أمة فقط، بل هي رمز؛ ففي دفاعنا عن حق إسرائيل في الوجود إنما ندافع عن ذات القيم التي بُنيت على أساسها أمتنا».

والنتيجة كانت نجاح ريجان، ليس فقط لدورة انتخابات واحدة، بل لدورتين. واسـتمر في الحكم من ١٩٨١ إلى ١٩٨٩م، وكان في كل هذه السـنوات -كما يقول الكاتب الأمريكي جيمس ميلز- ينطلق في سياسته من إيمانه بتنبؤات الكتاب المقدس، وخاصة سِفر حزقيال، وما جاء فيه من أن الرب سيأخذ أولاد إسرائيل إلى الأرض الموعودة.

عقيدة الرئيس الأمريكي كانت تكشفها التصريحات العديدة له، والتي تعترف بإيمانه بموقعة هرمجدون، ولقاء المسيحيين مع «الكفار» المسلمين، والمجيء الثاني للمسيح، حتى أنه في يوم من الأيام قال لمدير اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشؤون العامة (إيباك): «عندما أعود بالذاكرة لأنبيائكم الأقدمين في التوراة، والعلامات التي تتنبأ بالمعركة الفاصلة هرمجدون، أجدني أتساءل إذا كنا نحن الجيل الذي سيشهد وقوعها؟» وفي الواقع، لقد عمل ريجان بصورة دائمة على الالتزام بواجباته وفق ما سماه إرادة الرب، أي العمل بما يحقق نبوءة الرب حتى يعود المسيح ليحكم الأرض؛ وهذا ما يفسر تركيز ريجان على الإنفاق العسكري وتردده إزاء مقترحات نزع السلاح النووي، وهي قرارات اعتمدت على تأثره بالكتاب المقدس. فهرمجدون التي تنبأ بها حزقيال لا يمكن أن تحدث في عالم منزوع السلاح.

وكذا كان حال جورج بوش الأب، ويكفي خدماته العسكرية لصالح اليهود في بلاد المسلمين؛ والتي قدمها لأجل تحقيق حلم هرمجدون.

ثم هدأت لغة الخطاب الديني إلى حد كبير في عهد الديمقراطي بيل كلينتون من ١٩٩٣ إلى ٢٠٠١م، إلا أنها عادت بشكل أبرز من المعتاد في عصر جورج بوش الابن، ليس هو فحسب، بكل كل إدارته التي كانت من حوله، وهو الذي أعلن بلا تردد أن اليهود هم الشعب الوحيد الذي اختاره الله، وكان يرى أن الضفة الغربية وقطاع غزة منحة ربانية لليهود لا يجوز التنازل عنها!

وكان يفتتح يومه بقراءة صفحات من الكتاب المقدس. ويكفي ترديده لمقولته التي التصقت باسمه في كل الوثائق والمصادر في حقبة حكمه، حين وصف حربه على المسلمين بأنها "حرب صليبية"! فهل بعد هذا الوضوح من وضوح؟!

وعلى خطاه استمر باراك أوباما الديمقراطى الليبرالى الذى أعلن بأنه بروتستانتى ولا يقدر أن يخالف هذه المعتقدات۞ مكرهًا كان أو راغبًا.

وبهذا يتضح لنا أن رؤساء أمريكانًا كانوا متدينين بعقيدة النصرانية المسيحية، وأنهم فقهوا قاعدة أن الدين يُعتبر من أهم المحرِّكات للشعوب؛ فقاموا بتوظيفها كأتقن ما يكون!

بين الشعب والحكومة

لا شك في وجود روح عامة من التديُّن في هذه الدولة منذ نشأتها، قد تنشط تارة وتفتر أخرى، إلا أن لهذا الدين تأثيرًا على الرؤساء الأمريكيين، كما على الشعب الأمريكي كذلك.

مع العلم أن جميع رؤساء أمريكا في القرن العشرين على طوله كانوا من البروتستانت، باستثناء زعيم واحد فقط كان كاثوليكيًا وهو جون كيندي، الذي قُتل في ظروف غامضة!

والتنافس على كرسي الرئاسة في أمريكا يكون في الأساس بين الحزبين الديمقراطي المشهور بالتحرر والليبرالية إلى حدٍّ كبير، والجمهوري المشهور بالتحفظ والتدين بشكل عام، في بلد تبلغ فيه الكتب ذات الموضوعات الدينية القائمة الأكثر مبيعًا، وتحظى المؤسسات الدينية بدعم الشعب، خاصة في أوقات الأزمات والمناسبات والأعياد، وتجتذب البرامج التليفزيونية التي تتصل بالدين أعدادًا كبيرة من المشاهدين، دون الحديث عن شهرة المواقع الإلكترونية التي تحظى بعدد من الزوار مهم من بين الأمريكيين، وأضحت المنظمات الدينية أكثر تأثيرًا في السياسة الأمريكية.

تأثير الأصول المسيحية

يعود هذا التأثر بالدين سواء بـ(البروتستانتية، أو الكاثوليكية) في أمريكا لأسباب مختلفة: أهمها أن أصل هذا الدين جاء به النصارى المهاجرون الأوروبيون الأوائل إلى هذه الأرض، فضلًا عن أصول التشريع التي تضمنها الدستور الأمريكي، بما في ذلك تعديلاته المختلفة التي اقتبست من الكتاب المقدس. أضف لذلك إسهامات المؤسسين الأوائل للولايات المتحدة.

ثم إن تأثير الأصول المسيحية على السياسة الأمريكية يبدو واضحًا في خطها الخارجي، من جهة نظرتها لنفسها في العالم كأمة رسالية، أو فيما يتعلق بالموقف من إسرائيل وبقية الدول بحسب خلفيتها الدينية. فالتوافق مع الأوروبيين يحدوه التوافق الديني بعنصريه البروتستانتي والكاثوليكي، والتراث المسيحي المشترك، وكذلك مع اليهود، بينما مع العرب فهناك أزمات واضحة متتالية مع كل عصر وحقبة.

المصلحة

هذا لا يعني أن السياسة الأمريكية تعتمد فقط على الأصول الدينية، بل أيضًا على البعد المصلحي في تفاعلاتها، بحسب ما تشعر أمريكا أن مصالحها الاستراتيجية معرضة للخطر.

وهذا ما يفسر أيضًا ازدواجية العلمانية والدين في أمريكا، والتي جاءت عقب ترسيخ مفهوم الحريات الدينية التي تعتبر من مصلحة الأرض التي تحتضن العديد من الأعراق المختلفة؛ لكي تستفيد منها. ولعل أبرز أعراض هذا التفاعل مع المسلمين ظهرت عقب الحادي عشر من سبتمبر بعد أن أعلنها بوش حربًا صليبية ضد المسلمين.

وهي الحرب التي كشـــفـت عن نمط العلاقـة بين البعـد القيمي والـديني والأخلاقي من نـاحيـة، وبين المصالح وصراعات القوى واستخدامات القوة من ناحية ثانية، والتي أكدت همجية الأمريكان وعدوانهم وغطرستهم.

نظرة للخلف

قامت سـياسـة الأمريكان الحربية في كل زمان على محاور واضـحة، أهمها كان التبشـير وإعداد المواد اللازمة لهذا العمل، كالكتب والمواد التي نشـــرت بكثافة في كل بلاد مســـتهدفة. وفي حين كان عملهم مركزًا على دعوة النصـارى لدينهم، كان دورهم مع المسلمين التركيز على الجانب الحضاري، فعملوا على زرع الانبهار بالحضـارة الغربية لخلق تيارات تدين لهم بالولاء الفكري، وأصبحت هذه الإرساليات مقدمة للتوسـع الأمريكي في العالم، وأصـبح المبشـر الأمريكي أحد أدوات نشـر النفوذ السـياسـي للولايات المتحدة.

أضـف لذلك ما يسـمى المؤسسات الإنسانية التي تعمل على نشر هيئات الدعم الإغاثي في مختلف بقاع العالم، والتي تلعب دورًا قذرًا لنشر التبشير وللتجسس لصالح الحكومة الأمريكية، وهي أذرع مؤسساتية سـاعدت على إخفاء الوجه الاسـتعماري الأمريكي باكتسـائها ثوب المؤسـسـات الإنسانية والعلمية، وفى مناخ من الدعوة الأخلاقية، ثم لدينا الحروب الصليبية التي لم تخلُ من مظاهر الدين في قيادتها.

وهذه كانت أبرز وسـائل توغل النفوذ الأمريكي، التبشـير والمؤسـسـات الإنسـانية والعلمية والحروب الصليبية والتي تعكس التوجه الديني المسيحي للأمريكان.

فلسطين

ينظر الأمريكان لفلسـطين كما ينظر لها اليهود، فهي تمثل لهم موقعًا جغرافيًا دينيًا مقدسًـا، وهي الأرض التي ولد فيها يسـوع وانطلقت منها المسـيحية، وكثيرًا ما كانت شـعارات اليهود تملأ فضـاء المسـاحات الدعائية التي نصادفها في الطرقات، ولا زلت أذكر تلك الحملة الدعائية الضخمة التي قادها اليهود لجمع التبرعات من أجل جدارهم العازل، وقد لاقت تفاعلًا كبيرًا، وجمعت لهم الأموال!

بحسب النظارة يختلف الوصف

إن المتأمل في خط التحول السـياسـي الذي عرفته الولايات المتحدة على اختلاف الحقب الرئاسـية العديدة التي قادها رؤسـاء مؤمنون بالمسـيحية النصـرانية، يجد بلا شـك فعالية الجهود الجبارة التي

دفعت بها حكومات هذه البلاد لتبشير العالم برسالتها، ويمكن وصف هذه الرسالة بحسب النظارة التي تنظر إلى أمريكا، فإن كانت النظارة مسيحية صهيونية فهي بلا شك ترى أمريكا «هرمجدون»، وإذا نظر إليها بنظارة التيار التبشيري فهي «مسيحية»، وإذا لبسنا نظارة الليبراليين فإننا سنراها «ديمقراطية»، أما بالنسبة لنظارة اليمين المتشدد فهي «أمريكا العظمة المهيمنة».

وفي الخلاصة، جميع هذه الأوصاف تصب في وصف واحد، أن أمريكا مسؤولة عن إنقاذ العالم وتحديد خطواته كيفما هي تشاء!

ماذا عن أمتنا

لقد حكم الولايات المتحدة رؤساء يدينون بالولاء لبلادهم ويحملون مسؤولية الدفاع عنها وتعزيز مكانتها في العالم، وبالنظر في سيرهم وعطائهم وقبحهم وطغيانهم، نجدهم في المقابل قد التزموا ما يؤمنون به، لم يحيدوا عنه!

فهل لنا أن نحلم بزعماء يحكمون المسلمين يفتتحون يومهم بقراءة صفحات من القرآن الكريم، يدافعون عن الإسلام، ويرددون نبوءات القرآن والسُّنة، ويحسبون حساب يوم الملاحم كما يحسب ترامب ومن سبقه حساب هرمجدون.

فنحن أولى بها منهم ونحن دين الحق الذي نزل محفوظًا من السماء، لا تجد غير نسخة واحدة من القرآن أينما بحثت في ربوع هذا العالم، بينما لا يتمكن المسيحي النصراني من إخراج نسخة واحدة موحدة لأناجيلهم! إلا وتاهت نفسه بين عدة نسخ محرفة قد بلغ التحريف فيها حد الفظاعة الصارخ!

ليس بقول مسلمة، بل بقول من ارتد عن دينهم وكفر به ممن قابلت في أرض أمريكا النصرانية.

اليهود في أمريكا

شاهدنا مرات عديدة كيف يسارع الرئيس الأمريكي المنتخب جديدًا بالسفر إلى "إسرائيل" والوقوف عند حائط البراق في بيت المقدس، وقد ألبسه اليهود قبعتهم الصغيرة، وشاهدنا مع ذلك ملامح الخشوع والتأثر التي تتجلى بوضوح على وجه كل رئيس يؤدي هذه الطقوس، والعجيب في الأمر أن حائط البراق هو الحائط الذي ربط إليه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم البراق في ليلة الإسراء والمعراج، ومنها جاءت هذه التسمية نسبة للدابة التي ركبها الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم بعد ربطها في حلقة على هذا الحائط دخل المسجد وصلى بالأنبياء، ثم عُرج به إلى السماوات العلى ليؤكد هذا مدى ارتباط المسلمين الوثيق بالسور، كما أنه يقع على الجانب الغربي من الحرم القدسي، فهو إذن جزء من الحرم المحيط بالمسجد الأقصى.

لكن بالنسبة لليهود، فهم يزعمون أنه الأثر الأخير المتبقي لهيكل سليمان، لهذا فهم يتوجهون إليه للصلاة والدعاء لأجل إعادة بناء هذا الهيكل ومجيء مُخلصهم "المسيخ اليهودي".

ويعتقد الرؤساء الأمريكان، ذوو المعتقدات المسيحية الصهيونية خاصة، إعادة بناء "الهيكل اليهودي"، وتحقيق حلم "إسرائيل الكبرى"، لتشمل ليس فقط الأراضي الفلسطينية، بل على الأساس الحرفي لسفر التكوين ١٥:١٨، القائل: "في ذلك اليوم قطعَ الرب مع أبرام عهدًا، قائلاً: لِنسلِك أُعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات".

ما سر العلاقة بين اليهود والنصرانية المسيحية

تأملت كثيرًا في حقيقة هذه العلاقة، وكيف يمكن أن يصادق المسيحي اليهودي وهو يعلم أنهم من قتل يسوع، وحوّل كنيستهم إلى مكب قمامة! ولكنني بنظرة في التاريخ وجدت أن نفوذ الصهيونية قد بدأ يتغلغل في المسيحية عن طريق مارتن لوثر، أستاذ اللاهوت الألماني ورائد المذهب البروتستانتي المسيحي، الذي هو انشقاق من المذهب الكاثوليكي المسيحي، وهو الذي أصدر كتابًا بعنوان "عيسى ولد يهوديًا" في سنة ١٥٢٣م، قال فيه:

"إن الروح القدس أنزل كل أسفار الكتاب المقدس عن طريق اليهود وحدهم، إن اليهود هم أبناء الله، ونحن الضيوف الغرباء، ولذلك فإن علينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التى تأكل ما يتساقط من فتات مائدة أسيادها كالمرأة الكنعانية تمامًا".

وحين نعلم أن المذهب البروتستانتي هو المذهب الذي يدين به اليوم غالبية الأمريكيين والأوروبيين، وحين نعلم أن هذا المذهب الواحد يشمل العشرات من الشيع التي لا يمكن فصل عقيدتها عن اليهودية أو الصهيونية لفرط الاشتباك والتفاعل بينهما، نعلم كيف تمكن اليهود من ضخ أدبياتهم التي تغلغلت إلى صميم العقيدة المسيحية البروتستانتية: فأولها كان ترسيخ مفهوم أن اليهود هم شعب الله المختار، وأنهم يكوّنون بذلك الأمة المفضلة على كل الأمم، مهما فعلوا وعملوا لا يُمكن انتقادهم. ثم إن ثمة ميثاقًا إلهيًا يربط اليهود بالأرض المقدسة في فلسطين، وإن هذا الميثاق الذي أعطاه الله لإبراهيم -عليه السلام- هو ميثاق سرمدي حتى قيام الساعة.

ويدخل في هذا الميثاق واجبات تسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين، وافتتاح مكاتب للهجرة اليهودية الى الأرض المقدسة. فضلًا عن ربط الإيمان المسيحي بعودة يسوع بقيام دولة اليهود سنة ١٩٤٨م. ومن أجل ذلك ينبغي تقديم كل أنواع الدعم المالي والعسكرية والسياسي والإعلامي لليهود.

وبهذا نجح اليهود في تسخير الاعتقاد الديني المسيحي لتحقيق مكاسب يهودية، وهذا ما يفسر النفوذ الهائل للصهيونية المسيحية في الأمم المتحدة ووسائل الإعلام وكل الأجهزة المرتبطة بمصالحها.

ثم لا شك أن موقف الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذوكسية يخالف "المسيحية الصهيونية"، ولكن اليهود أحكموا قبضتهم الاقتصادية، ووضعوا ثقلهم في مواقع القوى في أمريكا؛ فلا ينفك التأثير اليهودي على السياسة والاقتصاد الأمريكيين.

مشاهد لليهود في أمريكا

لفتت انتباهي بعض الأحياء الفاخرة التي تتميز عن غيرها بقصور و"فلل" يسكنها أثرياء البلاد، وحين سألت لمن هذه المنازل ؟، قيل لي هذه أحياء يهودية، يسكنها أغنياء اليهود فحسب.

وفي المقابل، هناك أحياء متوسطة الحال، لكن يقطنها يهود متدينون تبدو عليهم آثار التعصب بشعورهم وألبستهم وقبعاتهم ونظراتهم الحادة، وأغلب النساء في هذه الأحياء لديها عدد كبير من الأطفال، ويحرصون على كثرة الإنجاب، نساءهم تلبس لباسًا مستورًا، ولا يختلطن إلا باليهود، ويبدو عليهن الحفاظ والالتزام بتعاليم حاخاماتهن.

والجدير بالذكر أن هؤلاء اليهود يعارضون قيام دولة إسرائيل، وبناء على اقتباسات من توراتهم فإن قيامهما يعني نهاية اليهود وسوء خاتمتهم؛ لهذا لابد ألا تقوم. وقد خرجوا في مظاهرات في مناسبات عديدة يعلنون رفضهم قيام هذه الدولة المشؤومة. كذلك المستشفيات اليهودية تقوم على أساس

التعاليم اليهودية، وخصوصًا الطعام، فهم يوفرون الذبح على الطريقة اليهودية ويحرصون على توفير الأجواء اليهودية فيها لمرضاهم، ومع ذلك هم يستقبلون مرضى من كل الأجناس.

أما جمعيات تجميع الأموال لأجل "إسرائيل" فيجتهدون ويثابرون في تحصيل الدعم بشكل مثير للانتباه، لقد شاهدت العجائز اليهوديات يعرضن للبيع ملابس من صنع أيديهن فقط لأجل أن يذهب ربحها إلى دولتهم المشؤومة، ولا يخفى الاهتمام اليهودي بكل ما يعني أخبارهم ونفوذهم وأعداءهم، كما لا يخفى على مقيم في أمريكا وجود اليهود ومدى تأثيرهم في الساحة الأمريكية ومدى ارتباط تحركاتهم بمشروعهم الخبيث في فلسطين.

موقف للتأمل

كان لدي موعد مع أحد الباحثين في مستشفى كبير يشمل قسمًا خاصًا للبحوث الطبية والدراسات، وحين خروجي من الموعد تفاجأت برجل يهودي ينادي عليّ، وكان من الباحثين في مركزه. فسألته ما الخطب؟ فقال هناك طبيبة تريد مقابلتك!

توجهت لمكتبها فتفاجأت بامرأة يهودية تلبس الأسود وعليها علامات التدين اليهودي، وأكثر ما شدّ نظري هي تلك الصورة الكبيرة في مكتبها لبيت المقدس وحائط البراق، لقد كان منظرها بالنسبة لي كالصدمة الحقيقية، فلم أكن أخالني سأشاهد مثل هذه الصورة في مكان كهذا.

كان أمام هذه الطبيبة جهاز حاسوب بشاشة كبيرة، وكان معها هذا اليهودي، وهو رجل ضخم يضحك ويبتسم كثيرًا بسبب وبدون سبب.

سألتهما ما الخطب؟ فقال لي اليهودي: قُلتِ إنك فلسطينية! قلت: كيف عرفت؟ قال: حين كنت تحدثين الباحث الذي التقيتيه! فعجبت لسرعة انتشار المعلومة، فبالكاد خرجت من مكتب الباحث وصلته المعلومة!

سألته وأين المشكلة؟ قال: لم يعد هناك من فلسطين، إنها دولة إسرائيل. قلت: هذا في ذهنك أنت فقط. فسألتني الطبيبة هل زرت فلسطين؟ قلت: نعم زرتها. قالت وماذا بقي في ذاكرتك من هذه الزيارة؟ قلت: مواقف كثيرة وأهمها أنها بلدي وقد اغتُصِبت!

ملامح الانزعاج كانت واضحة على ملامحهما ولكن الابتسامة لم تختفِ من وجه اليهودي الذي كان ينظر لي بحماسة زائدة! قلت لعله يتحين فرصة للإهانة أو للتجريح وزرع الإحباط.

فجأة فتحت الطبيبة فيديو على شاشة الحاسوب، وفيه صور من داخل بيت المقدس كانت مليئة باليهود!

قالت: ما رأيك في هذا الفيديو؟ قلت مجرد حالة مؤقتة!

فتعجبت من ردي لها، وأثار هذا غضبها -كان ذلك واضحًا- ولكنني سارعت في الرد فقلت: ولكن أليس هذا غريبًا؟ أثير فضولكم لمجرد كوني من فلسطين، وتستدعونني بطريقة غريبة لا لنقاش بحث أو عمل، بل لمناقشة صراع!

أعتقد أن قلقكم واضح وخوفكم أوضح!

ثم خرجت دون أن أطيل معهم الحديث ولكن حين خروجي سارع اليهودي بالقول: إن احتجت أي مساعدة أو عمل معنا فمكتبنا مفتوح لك، قلت: لا، لست مهتمة بالعمل معكم.

كانت الابتسامة تتلاشى من على وجه اليهودي، ولكنها ظهرت على محياي؛ فقد علمت أن فلسطين ستبقى حاضرة في كل خطوة لي حتى في أمريكا وفي أبعد أرض، ذلك أنه صراع لن ينتهي إلا بسنن ربانية، فأسأل الله أن يقر أعيننا ببشريات المسلمين التي حملتها لنا نبوءات خاتم الأنبياء عليه أفضل الصلاة والسلام.

اليهود وفلسطين

نعم، كنت ألتقي بهم في أمريكا كأكثر من أي أرض أخرى بعد فلسطين، كنت أجدهم في كل مكان، وفي كل جامعة ومركز ومكتب، كانوا يذهلون لمجرد سماعهم أنني فلسطينية، كان هذا يثير انزعاجهم بشكل واضح وجلي، فكيف لو أنهم قرأوا ما بداخلي من مفاهيم عن أرض ميعادهم! لقد كانت أسماءهم دليل يهوديتهم، وصور فلسطين في إطارات يزينون بها مناظرهم. يتمسكون بأرضنا المغتصَبة ويعلنون أنها لهم، متباهين بجمالها ورونق حضارتها وتاريخها. كل هذا حالة نفسية مؤقتة، هذا ما وصلت إليه، وإلا فلما هذا التخبط حين مشاهدة فلسطيني واحد؟!

أما نحن فنحمل فلسطين فى قلوبنا وفى أبصارنا وفى كل لحظة نفس وتفكير وتخطيط لهدف، لهذا لن يهنأوا بأرضنا أبدًا، هذا وعد حق وليس حلمًا.

المعيشة في أمريكا: الغايات والمآلات

سواء كان المرء متدينًا أو غير متدين، ملتزمًا بتعاليم الإسلام أو غافلًا عنها، سنجد أن أغلب المهاجرين لأمريكا، إن لم أقل كلهم، توجهوا لتلك البلاد البعيدة جغرافيًا وروحيًا لأجل معيشة أفضل ومستوى حياة أرقى، وجمع المال، ثم المال، ثم المال.

ومنهم من ينشد الشهادات العلمية والوظائف المرموقة والمستقبل المبهر الزاهر الذي يحقق معه صاحبه النجاح والشهرة، ومنهم من يحمل هم تحقيق شيء في بلده؛ فيخطط للبناء وإرسال الأموال وتوسيع دائرة الأحلام والأهداف.

تصنيف المهاجرين إلى أمريكا

كثيرة هي مشاغل الناس التي تهاجر لبلاد أخرى، وأهم شغل لهم هو تبديد العقبات أمام تقدمهم في مجتمع غربي، وهذا ما يجعلنا نصنفهم لأنواع رأيتها في أمريكا كالتالي:

صنف منبهر بالأمريكان

ويسعى لأن يكون مثلهم، وقد يغير اسمه وينسلخ من دينه وأصله، حين تلتقيه تتعجب من تأثير الحياة الأمريكية في سلوكه وفكره وطريقة معيشته، يصبح لديه الخمر شراب النخبة، والزنا لهوًا محببًا لا يضر بل ينفع. هذا الصنف يثير الشفقة، فهم يعانون من الانفصام في كثير من الأوقات، خاصة حين يأتيهم الابتلاء أو المرض أو المصيبة، تجدهم يحتارون: أيفرون لله الذي عبدوه يومًا وآمنوا به فيعلنونها توبة، أم يتوجهون لعيادات نفسية ويبلعون الأقراص المخدرة التي تنسيهم واقعهم ويعلنونها انتكاسة وهزيمة؟ ولا أبالغ إن قلت إن حال هؤلاء في الغالبية يعاني المشاكل النفسية ويعيش على العقاقير المخصصة لهذه الأمراض.

صنف هدفه المال وجمع الثروات والتميز بالغنى

يسعى جاهدًا لجمع الدولارات، لا يهم كيف ولكن يهمه كم، قد يعمل في أعمال مهينة، وقد يوظف زوجته وربما أولاده، كل همه الجمع ثم الجمع، لقد شاهدت من العائلات التي تأكل من فضلات المطاعم العربية فقط لأجل توفير المال لأجل بناء مشروع في بلادهم، وكانوا يعدون هذا "نجابة وكياسة وسبقًا". لقد شاهدت من كانت يومًا تلبس حجابًا تنزعه متحججة بقاعدة "للضرورة أحكام"؛ كي تحصل على العمل في شركة أمريكية، ولكن الأعجب، لماذا تضطر هذه المسلمة لتقصير الثياب لدرجة مريبة؟ كل هذا لأجل

الحصـول على وظيفة عمل. لا يمكنني سـرد الأمثلة على هذا الصـنف المنتشـر بكثرة في أمريكا، ولكنهم أناس ألفوا الذلة حين لووا أعناقهم للورقة الخضـراء، واسـتهانوا بعزتهم وأنفتهم وكرامتهم. لقد شاهدت من يسـجل في برنامج الكفالة الأمريكية، ويحصل منهم على المساعدة الشهرية، في حين يعمل بالخفاء وفي السـوق السوداء لتوفير مبالغ أكبر، وحين يستجوبه المسؤولون في برنامج الكفالة هل وجد عملًا؟ هل استقر وضعه وتوظف؟ تجده يراوغ ويستكين ويبرز ذلته أمامهم كي يوهمهم أنه لا زال بحاجة لهم، في حين يكدس الدولارات في خزانة غرفة نومه ويخشى أن ينكشف أمره، فأي ذلة هذه!

وغالبًا ما ينتهي الحال بهذا الصـنف بتحقيق أحلامهم في بناء البيت وإطلاق المشـاريع والنجاح المالي في بلادهم، ولكنهم يفقدون مع ذلك أصـالتهم وأخلاقهم وعزة نفسـهم، فتجدهم قد ألفوا الاسـتكانة للعمل، يبرزون قوتهم أمام أبناء بلدهم، ولكن أمام الأمريكان فلن تجد غير الخضوع والانقياد!

الصنف العلمي

صـنف آخر التقيته يحمل همّ العلم، يعيش بما يسـر الله له من مال، ولا يتكلف المظاهر ولا يلهث خلف جمع الأموال، ويأبى العمل في وظائف مهينة أو لا تليق بمقامه العلمي، هذا الصـنف يعشـق العلم وينبهر بالمتعلمين والباحثين الغربيين. وقد برز الكثير من المسـلمين في الجامعات بنباغتهم واجتهادهم بشـكل يثير الإعجاب، ولكنها طاقات التقفتها الهيمنة الأمريكية ولم تتركها تائهة أو بلا هدف.

لقد أشـبعت همتها ووفرت لها جميع السـبل والتسـهيلات للعمل والبذل في سـبيل أمريكا أولًا، لهذا نجد هـذه الطبقـة مرتاحة في معيشـتها لا يهمها كثيرًا التفكير في المسـتقبل وجمع الثروات، فهي مكتفية منشـغلـة ومسـتهلكـة. قـد نجـد بينها المتدين، وقد نجد الغافل، وكل يعيش وفق مفاهيمه ومعتقداته ويُحترم لأجلها، بـل لأجـل طـاقـاتـه المنشـودة. والجـدير بالذكر أن هذه الطبقة سـريعًا ما تحتضـنها المؤسسات الأمريكية سواء الجامعات أو حتى البنوك، فلا بد أن يعرض البنك على الطالب قروضًا بآلاف الدولارات بحسب طبيعة دراسته، كلما كانت شهادته التي يسعى لتحصيلها ذات أهمية في ميدان العمل الأمريكي كلما كانت سـعة القرض أكبر، فقد تصـل لمائة ألف دولار، وبهذا يسـيل لعاب الكثير من الطلبة ويتورطون في قروض ربوية مهلكة يسدون أقساط فوائدها بقية عمرهم.

يهوى الإقامة في الغرب

صنف آخر، يعشق العيش الغربي، لا يهمه مال ولا علم ولا مكان مرموق، يحب العيش في زاويته ويكفي أنـه مغترب في أرض "عظيمـة"، يرضـى بالقليل، ويأوى لركنه كل يوم مسـتمتعًا بحياته التي يعتبرها

ناجحة لمجرد تمكنه من الحصول على إقامة، همته ضعيفة وبصره لا يتعدى موطأ قدمه، كما لا تتعدى أحلامه أحلام طفل صغير، يعيش يومه ولا يفكر في آخرته.

الفارين من الخطر

صنف آخر لديه هدف، سافر للغرب مؤقتًا لأجل خطة يمضي بها لمستقبله، أو فرّ من خطر يلاحقه. وقد شاهدت مثل هؤلاء الكثير، هدفهم الأول والأخير هو الفرار من حاكم طاغوت ظالم، أو الهروب من الرقابة والخناق الذي يمنعه من الكلام أو العمل أو إبداء أي نقد بناء. أمثال هؤلاء يعيشون بمبادئهم وأفكارهم في المجتمع الأمريكي ويحملون همًا، ولا يفلحون غالبًا في الخروج إلا ما ندر؛ لأن أنظمة الحكم ما بعد المحيط لا زالت لم تتغير.

اللاهث خلف الحريات الفردية

لدينا صنف آخر أيضًا، هو غالبًا صنف يلهث خلف الحرية الفردية في العيش على الطريقة الغربية، يحاول أن يحاكي الأمريكان، ولكنه يحافظ على هويته المسلمة، ذلك أنه يحب أن يظهر في أعينهم كمسلم "راقٍ متحضر مختلف"؛ فيغير بذلك نظرتهم للتطرف، وأمثال هؤلاء الكثير.

من جاء بدافع قدره

ولا يفوتني ذكر صنف آخر وُجد في هذه الأرض وليس باختياره، قدم إليها في بطن أمه أو سيق إليها بدافع قدره، لم تكن له خيرة ولا مشورة، وإن كانت نسبتهم قليلة فهم موجودون.

طبعًا هناك صنف اللاجئين الذين يقفون في طوابير الانتظار الطويلة لأجل المقابلات وتقديم الملفات وصداع القوانين والمتطلبات لإقامة لاجئ، ثم لا ننسى أولئك القادمين بشكل غير قانوني، والمقيمين بخفاء يهربون من خيال شرطي أو رجل أمن، فمن أُلقِي عليه القبض أعيد لبلده مهانًا، وإلا عيشة التخفي والركض.

قد تكون هناك أصناف أخرى، لكن هذا مجمل ما لخصته من أنواع المقيمين في أمريكا، وأقصد تحديدًا من المسلمين.

وقد خلصت لقاعدة نبوية عظيمة في كل مرة أتأمل فيها حال هؤلاء المقيمين في أمريكا، هي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته

الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له).

فوالله ما رأيت أحدًا حقق أكثر مما كتب له، ولا سعيدًا مثل من رضى بما قسَّمه الله له يحدوه الإيمان واليقين ويعمل لخاتمة يوم الدين.

دعوة للتأمل

ثم إن الخواتيم التي شاهدتها بعيني في أمريكا لكثير من المغتربين المسلمين لتدعو للتأمل، بل للرهبة والخشية.

فقد رأيت من عاش في أمريكا أكثر من ثلاثين سنة يجمع ويكدس الأموال ليحقق حلمه في بناء قصر له في بلده يشار عليه بالبنان، وحين جاء موعد دخول قصره المنتظر، وقد سافر لبلاده في اعتزاز وفخر، ما أن شاهد البيت المشيّد بأروع فنون الهندسة وقبل أن تطأه قدمه، كان له ملك الموت بالمرصاد، ومات فورًا بسكتة قلبية، وقد تشبثت عيناه بحلمه الذي تحقق أخيرًا لكنه لم يحظَ بمباركة خطاه.

ثم قصة ذلك المغترب الذي انشغل عن تربية أبنائه بالعمل والدوام الإضافي والاجتهاد في طرق أبواب الرزق، ظنًا منه أنها أفضل طريقة للعناية بأماناته من أطفال، وتركهم للمجتمع الأمريكي ولأم غافلة، ففجع في يوم حين عودته للبيت بابنته برفقة صديقها الأمريكي في وضع مُخلٍّ لا تتورط فيه مسلمة، فكان أن أصيب بإحباط شديد وصدمة عظيمة، يردد في كل حين، ماذا جنيت من عيشتي هذه حين أرى ابنتي برفقة صديقها يدًا بيد ينال منها بلا حياء ولا خجل، وهي المسلمة العفيفة في حين تعتقد هي أنها تعيش أروع قصة حب؟!

دخل الرجل على زوجته وقال لها باللسان الصارم: "لديك أسبوع للسفر، سنرجع ديارنا، وهذه المرة للأبد". وبالفعل خرج الرجل الغاضب المصدوم ليصرف أعماله وينهي أي ارتباطات تعنيه في تلك البلاد، وبعد وصوله لبلاده وتنفسه الصعداء تفاجأ ببناته يحاولن الهروب من البيت ويبحثن عن السفارة الأمريكية لتحتضنهم وتعيدهم لأمريكا، فكان أن شعر بخسارته الحقيقة، ودخل مرحلة خطيرة من التوجس والخوف.

وإليكم قصة ذلك المغترب الذي طالما أقسم أنه لن يموت في بلده الذي ولد فيه، ولن يسمح لأحد أن يرى قبره في أرض هجرها برضاه لأرض اختارها معجبًا برقيها وغناها، فكانت الأقدار له بالمرصاد،

وجاءه سـفر فيه عمل ينزل فيه في بلاد الشـام، وحين نزل جاءه خبر طارئ أن عليه أن يقطع مسـافة طويلة برًا للوصـول إلى مقر الاجتماع مع العملاء الذين سافر للقائهم، فاضطر أن يركب السيارة ويسافر برًا ليمر ببلاده التي أقسـم أن لن يرجع إليها، وما أن دخلها بدأ يعد الدقائق ليصـل إلى الحدود ليخرج منهـا، ولكن قـدره كان عند تلك النقطة قبل الخط الحدودي، عندما اصـطدمت سـيارته أثناء سـيرها وتهشمت، ومات هو من فوره، فكان أمر الله أنفذ لا قسم المغرور.

حكايات كثيرة وقصـص مؤثرة مبكية، ونهايات مخيفة تنتظر من اختار العيش في بلاد الغرب إلى آخر رمق، دون الحديث عن المشـاكل العائلية والمآسي والعلاقات المتوترة والمضطربة والشكاوى المستمرة، ولا أحد راضـيًا وإن كان غنيًا!، ثم النهاية، ما أسـوأها من خاتمة تلك التي يموت فيها مسـلم ولا يجد من يصلي عليه، أو تراه يدفن في تراب بين الصلبان، فمن يدري عنه؟!

ولا أعني أولئك الذي كتب عليهم القهر والاضـطرار للعيش في أمريكا، فهؤلاء بحسـن نيتهم نرى حسـن خواتيمهم. وقد شـهدت يومًا موت رجل صـالح كان ملتزمًا بالمسـجد منذ قدومه لأمريكا. حتى في يوم جمعة، اغتسل ولبس الأبيض وتعطر وخرج يهرول للصف الأول.

ولكن ما أن بدأ القوم الصلاة وسجد الجميع، رفعوا كلهم إلا هو، فيالها من خاتمة نحسبه قد صدق، فلطالما شُهد له بتعلق قلبه بالمسجد.

وقد تجد من يموت في بلاد الغرب ويسـخر الله له قلوبًا ترثيه وأناسًـا يذكرون محاسـنه، وشـيوخًا يضربون المثل بسلوكه وتقواه، وهذه من فضائل الالتزام حتى في أوساط الكفار.

الحديث عن المعيشة في أمريكا يطول، ولكنني أحب أن أختم بهذه الخلاصة الجامعة: إن الحياة ليست محصورة في طعام ومسكن وتكنولوجيا حديثة ونظام وأموال، بل هي في المعتقد، وخاتمة الحياة التي اخترنا أن نعيشها بأنفسنا، في آيات سورة النجم

«فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠).»

المسلمون في أمريكا بين ناري الفرقة والغربة

ليس وصف المسلمين في أمريكا إلا انعكاسًا لحقيقة واقعهم المرير في كل مكان في العالم، متفرقين مشتتين منقسمين إلى فرق وجماعات، تراهم فرادى وتراهم زرافات، لكنهم في أغلبهم يفتقدون القيادة الواحدة، والروح الواحدة، والوحدة الواحدة التي يجب أن تجمع فئات هذه الأمة.

وكون أمريكا أرضًا فسيحة فقد ضمت من جميع أجناس المسلمين من كل بلاد في العالم الإسلامي المترامي الأطراف، سنجد الباكستانيين والأفغان، وسنجد الأتراك والألبان، سنلتقي بالمغاربة والمشارقة، بالأفارقة والتركستان، من كل ملل الإسلام سنجد فرعًا أو أثرًا، لكن المحزن بحق هو ذلك المشهد غير المتجانس للمسلمين؛ فهنا مسلمون ملتزمون، وهناك لا يحملون من الدين إلا اسمه.

المساجد في أمريكا

حين كنت أمشي في شوارع أمريكا كنت أشاهد في نفس الشارع، مسجدًا لأهل السنة فيه يجتمع السلفية الجدد، ثم آخر لأهل السنة ولكنه للسلفية "الوهابية"، ثم آخر للصوفية، وعلى طول الخط مسجد للأحباش، وحتى النقشبندية، تعددت المساجد والنداء واحد، لكن القلوب شتى.

وتأتي المساجد لتجمع شتات المغتربين والمعتنقين للإسلام، وتختلف نشاطاتها بحسب نشاط جالياتها وهمة روادها، وهناك من المساجد التي تعتبر خلية نحل، تؤتي أكلها في كل حين ولحظة، قد أسلم فيها الكثير من الأمريكان والنصارى، وأضحت قبلة الباحثين عن الحقيقة وعن المسلك، ثم بالنسبة للمسلمين الملتزمين كانت كالحضن الدافئ يستشعرون فيه حرارة الإيمان ودفئ الإسلام وأخوة الدين العظيم.

ذكريات المساجد لها أثر كبير في ذاكرة المغترب إلى بلاد الغرب، ولا أخال مسلمًا ارتادها إلا وتعلق قلبه بها، وإن كانت مجرد بناية بدون مأذنة أو قبة كما اعتدنا أن نشاهد هندسة مساجدنا في بلادنا، وكم من مسلمة كانت تحدثني عن لقاء المسجد كأنه ساعة الأنس والتداوي من وحشة الاغتراب.

لهذا كان للحلقات والدروس وقعها، وكان لها جمهورها، وكانت المناسبات والولائم تجمع الغرباء، ثم لا تسأل عن التبرعات وسخاء المستوحشين حين تجمع لبلاد مسلمة منكوبة أو مشروع للإسلام مطلوب، لقد شاهدت مسابقة في البذل تذكرنا بأيام الإسلام الأولى، ولله الحمد.

يوميات المسلمين

على تلك الأرض قد يمضي المسلمون في اعتساف تجارب متنوعة هنا وهناك، ولا ينجو غالبًا إلا من حكّم ضميره ووجدانه لشريعة الله، وحكّم واقعه ونشاطه لذات الشريعة، فما خاب من اتبع وحي الله، وإلا فإنه سيفقد البوصلة ويصاب بداء الفصام (الشيزوفرنيا)، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء! ذلك أنه يخوض في كل يوم صراعًا بين الوجدان الديني وواقع الحياة العملية، وهو واقع يستند إلى تصورات وقيم لا علاقة لها بالوجدان الديني، وهو تمامًا ما يعيشه الأمريكي المتدين تارة والمستنكر لدينه تارة أخرى.

مشاهد للفرقة والاختلاف بين المسلمين

قد يتفرق المسلمون في كثير من المواقف والمناسبات، لكن لا بد أن تجمعهم أعياد المسلمين، كعيد الفطر وعيد الأضحى، ومع ذلك كان مؤسفًا جدًا أن توجه لي إحدى المعلمات الأمريكيات سؤالًا باستغراب: لماذا لا يجتمع المسلمون جميعًا في عيد واحد؟! قلت: بل هم كذلك. قالت: كلا، لدي أطفال مسلمون في الصف، وتسمح لهم المدرسة بالحصول على يوم إجازة في أيام أعيادهم، وحين أقبل عيد الفطر، وجدت أطفالًا قد تغيبوا وآخرين حضروا كعادتهم، فلما سألتهم أليس اليوم عيدكم؟ قالوا: لا، نحن عيدنا غدًا، وآخرون قالوا بل نحن بعد غد.

حقيقة مؤلمة أن يعيش هؤلاء المسلمون في أرض واحدة ويختلف فيها الأئمة والشيوخ في المساجد في توحيد الأعياد والمناسبات الدينية؛ لأن هذا التفريط والتقصير ينعكس على مشهد وحدة الأمة أمام الكافرين، وقد حاولت أن أفهم القصة، فعلمت أن الشيخ الذي سمع بخبر رؤية الهلال رفض شهادة الشهود كونهم لم يكونوا من بلاده، ولم يكن يثق مسجدهم ولا إمامهم.

الضحية المعتنقون الجدد للإسلام

ثم الاختلاف يكشف حباله ابتداء المعتنقين الجدد للإسلام، فقد تجد مسلمًا جديدًا يتساءل بغموض شديد: أي الفرق أصدق؟ فهذا صوفي يدعوه إلى الإسلام بطريقته، وذاك مرجئ، وآخر شيعي، وهكذا يتوه هذا المسلم الجديد في كم النصائح التي تتوالى عليه وكم الدعوات التي تنهال، ثم منهم من يفتن من جديد ويترك الأمر برمته، أو تجده يلتزم الصلاة والصيام وكفى، ولا يبحث عن أي شيء آخر. آثار فرقة المسلمين نجدها في كل مكان، ولكن الأكثر مرارة هو تنازعهم واختلافهم، وهو حال الأمة برمتها.

العنصرية والإسلاموفوبيا

ثم لا شك أن المسلمين على اختلاف تياراتهم وتفرقهم، يتعرضون لموجة من العنصرية عاتية لا تفرق بينهم أبدًا، تعكسها تلك التصريحات العنصرية اللئيمة التي يطلقها بعض الساسة الأمريكان على مسمع من المسلمين، وتلك البرامج الخبيثة المبرمجة لبغض المسلمين؛ والتي أدت بالتأكيد لانتهاكات واعتداءات على الجاليات المسلمة المسالمة وممتلكاتها بشكل يدعو للتأمل.

ولا زلت أذكر ذلك الفيلم الذي يصور رجلًا مسلمًا يحاول تفجير نادٍ ليلي في أحد شوارع أمريكا المكتظة، ثم تأتي امرأة أمريكية تعمل في الاستخبارات فتهزمه وتركله وتهينه وتحبط عمليته، وتقول له بالعبارة الواضحة: "أنا لست عائشة ولا فاطمة فأغطي كل شبر من جسمي، بل أنا الأمريكية الحرة التي تدوس عليك ولا تبالي"!

ثم حين قرأت اسم المخرج وكاتب السيناريو وجدتهما يهوديين يتقيئان كراهيتهما؛ فتظهر في مشاهد تمثيل هوليودية لا تزيدهم إلا إسلاموفوبيا، وتشغلهم بالتعدي على المسلمين. وقد شاهدت عدة مسلمات يشتكين الاعتداء على حجابهن أو نقابهن أو أبنائهن، ومنهن من عانت من تخريب وتدمير للممتلكات بعمد حتى اضطرت لتغيير محل سكناها!

ضعف المسلمين في الوسط الأمريكي

ورغم أن أغلب المسلمين في أمريكا متعلمون، أو بشكل عام أفضل تعليمًا من الأمريكيين أنفسهم ويجتهدون في رفع صوت الإسلام عاليًا في سماء أمريكا، إلا أن النشاط اليهودي في البلاد يحاصر أي رقي للعطاء الإسلامي أو كيان للدفاع عن المسلمين، ويحاربه بشكل مباشر أو غير مباشر، وهو نشاط تديره المنظمات اليهودية الصهيونية التي تعمل على توجيه القرار الأمريكي لصالح طموحاتها وكراهيتها للمسلمين.

ورغم توفر أعداد كبيرة من المساجد والمراكز الإسلامية والنوادي التي تعتني بالمسلمين، إلا أنها جميعها تحت الرقابة والمتابعة الاستخباراتية، وكثيرًا ما يتم تركيب كاميرات خفية تتابع كل شاردة وواردة فيها، فضلًا عن أساليب التنصت على المكالمات والاتصالات من وإلى هذه المساجد والمراكز، ثم هناك الجواسيس الذين يندسون داخل صفوف المصلين لينقلوا تقارير مفصلة عن محتوى الخطب والدروس التي يلقيها أئمة المساجد والخطباء، وهو أمر ليس بالمستور، بل تكشفه وسائل الإعلام الأمريكية وتفخر به وتذيعه باعتزاز على أن أمنها القومي بأمان وتحت السيطرة من أي تمادٍ من المسلمين!

الحنين للأذان

ثم لا يعني توفر المساجد بكثرة أننا سنسمع الأذان خمس مرات في اليوم، بل لم أشعر بوحشة الأذان كما شعرتها خلال إقامتي في أمريكا؛ ذلك أنه محظور. وقد كنت أستمع إليه فقط من خلال الحاسوب، ثم حين سمعت الأذان بعيد عودتي كان شعورًا عجيبًا لا يمكن وصفه، وكأن الجسد يتشرب نسمات النداء وينتعش ويسترجع حيويته ونشاطه وروحه التي ضمرت مكرهة تحت أصوات المزامير والموسيقى الصاخبة التي نضطر لسماعها في المجمعات والمباني العامة.

لقد كان سماع الأذان بحق بلسمًا للروح وشفاء.

جاليات لفتت انتباهي

ولعل أكثر الجاليات المسلمة التي لفتت انتباهي كانت الجالية الباكستانية، فقد كانوا منظمين بشكل متقن، أسواقهم مجتمعة معًا وتوفر كل ما هو حلال وما يتصل بعاداتهم الغذائية أو لباسهم وثقافتهم، فضلًا عن اهتمامهم بتحفيظ القرآن، فقد صادفت الكثير من أبنائهم الذين ولدوا في أمريكا حافظين للقرآن، لديهم الكثير من مدارس التحفيظ، وإن كانت داخل البيوت والمساكن لكنها نشطة بشكل يدعو للبهجة.

ثم نجدهم في الفعاليات والمؤتمرات الدينية بكثرة، وهم يعتزون بزيهم الإسلامي الساتر، فضلًا عن أن مساجدهم تضم أعدادًا ملفتة من المصلين، ويواظبون على شعائر الإسلام بوضوح جليّ.

لقد التقيت بإحدى الباكستانيات وسألتها: ما الذي جاء بها إلى أمريكا؟ فقالت إنها الدراسة، فزوجها طالب في مرحلة الدكتوراة، وهي انشغلت بتحفيظ أطفال الباكستان القرآن. وكم تعجبت حين رأيت الحُفّاظ أصلًا لا يتقنون اللغة العربية، ولكنهم يتقنون الحفظ بشكل مثير للدهشة! فهذه من مشاهد إعجاز القرآن الكريم، وهمة المسلم حين تتربع على عرش العطاء.

قصة عمر

ولم أنسَ موقفًا لهذه الأم المسلمة الواعية لا يكاد يفارق مخيلتي كلما استذكرت أيام رفقتي بها، لقد كنا نمشي في شارع ومعنا ابنها عمر، كان صغيرًا لا يتجاوز الخامسة، ولكن في الشارع نساء عاريات يمررن بين الفينة والأخرى. فشد انتباهي تركيز أم عمر على وضع يدها فوق عينيه، وهي تدله على الطريق

كيف يمشـي، فسـألتها متعجبة: لماذا تضـعين يدك فوق جبينه وتمنعينه من النظر براحته؟! قالت: "في الشارع الكثير من العري والفجور، وأريد أن أعوده على غض البصر"!

لقد كان عمر يغض بصره ولا ينظر إلا أمامه حتى ينتهى ويصل إلى وجهته، فعلمتنا هذه الأم درسًا فى

كيفية تربية طفل مسلمﷺ وإن كان الوسط الذى ينشأ فيه فاسدًا.

من الصعب أن ألخص مواقف رائعة في التربية لمثل أم عمر في هذه السطور، فهذا يحتاج لكتاب منفرد يتحدث عن فنون التربية وأسـرارها، والتي أراها علمًا يلقن ويذاكر ويتوارث، فإعداد جيل مسـلم قادر على تحمل تكاليف الإسلام لهو أكبر إنجاز قد تقدمه أم لهذه الأمة.

ثم ربما كانت هناك جاليات أخرى متماسكة ومتعاضدة كهذه، ولكنها لم تصل لدرجة لفت الانتباه بمثل هذا المسـتوى، ولا زلت أذكر نشـاط بعضـها وإن كانت أغلبها أعجمية، إلا أنها أتقنت فن الاجتماع في الغربة.

جيل جديد ولد في الغربة

نعم هناك جيل جديد، شـريحة كبيرة، أطفال مسـلمون، ولكنهم بوجدان أمريكي، ولاؤهم لأمريكا، وأحلامهم لا تتعدى حدودها. مؤسـف جدًا أن نشـاهد الكثير من أطفال المسـلمين قد انخرطوا في المجتمع الأمريكي متنازلين عن كل معنى للأصالة والدين والخلق.

وحتى لا أزيد الصورة سوادًا وبشاعة، أعترف أنني التقيت بشباب ولدوا في أمريكا قد أثاروا إعجابي، لأدبهم وخلقهم وعلمهم وتفانيهم في الدعوة، كحال ذلك الشاب الطالب في كلية الطب حين تفاجأت به يزور كل المسلمين الذين يسمع عنهم في المستشفيات في دائرته، أيًا كانت جنسيتهم أو أصولهم، فيعرض عليهم المسـاعدة ويزورهم لكسـب أجر زيارة مريض، ثم يهديهم الهدايا ويلبي طلباتهم، وقد التقيته صدفة حين كنت أزور إحدى المسلمات التي كانت تعاني آلامًا شديدة تتطلب إزالتها عملية في النخاع الشوكي، فدخل علينا في الغرفة ليحييها بتحية الإسلام جالبًا لها بعض الهدايا مما تحتاجه في إقامتها المتوترة، لقد زاد عجبي حين علمت أنه حافظ لكتاب الله، ولم يخرج من أرض أمريكا أبدًا، لا لزيارة بلده الأصل ولا لأي بلد إسلامي آخر؛ فقلت بوركت التربية وبورك الصدق.

تجربتي مع المدارس الإسلامية في أمريكا

في الوقت الذي تدخلت فيه الهيمنة الأمريكية بكل ما يتعلق بالمناهج الدراسية والتعليمية في عالمنا الإسلامي باسم حقوق الإنسان والديمقراطية وحرية الفكر، وبما يوائم أهدافها وأطماعها في أمتنا، كانت الأنظمة الدكتاتورية الطاغية تفتح لها سبل التأثير والتغيير بأسهل ما يكون، وهي تتباهى بحسن السمع والطاعة لكل رئيس أمريكي جديد، وتسارع لتقديم البيعة والولاء له قبل غيرها في مشهد تنافس مذموم، وكأنه السباق لتحصيل لقب العمالة بامتياز.

نزعات الشر

لا شك أن هذه الأنظمة تعلم جيدًا بأنها لعبة في يد الأمريكان، ورغم ذلك فما تحصل عليه من نفوذ وتقتات عليه من فتات يعني لها الكثير الكثير، ويشبع نزعاتها للطغيان والاستبداد والظلم، ويلقى تفانيها في الولاء بالمقابل ترحيب الأمريكان. ويكفي أن نتأمل قول السفير الأمريكي السابق في إسرائيل مارتن أنديك، وهو يعد أحد أهم مستشاري السياسة الأمريكية، حين قال:

«فى الماضى ساد إدراك بأن ديناميات التغيير فى المجتمعات التقليدية يمكن أن تفضى إلى زعزعة الاستقرار، وطرحت واشنطن الخيار إما بين الفساد أو الفوضى، واختارت مساندة حكومات فاسدة؛ لأنها خشيت من سوء عاقبة البديل على المصالح الأمريكية».

فالقيادة الأمريكية على قدر من الوعي والإحاطة بنقاط ضعفنا وقوتنا، وهو ما يدفعها بلا تردد إلى دعم الأنظمة الفاسدة الجاثمة على صدور شعوب المسلمين -هذا إن لم نأخذ بعين الاعتبار أنها هي من أقامتها وانتقت رجالاتها بعناية-، ثم كانت سهامها موجهة إلى جوهر كل منا العقدي.

وحتى تحقق النتائج المرجوة كان لا بد من استهداف محاضن هذه العقيدة، إنها "المدارس"، التي فيها يتم العمل على حرف الرؤية الإسلامية باتجاه الرؤية الأمريكية البرجماتية في الوجود ليتم محو قاعدة (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) بشكل تدريجي ومباشر.

ثم حتى يضمن الأمريكان تشويه العقيدة الإسلامية وسد الفراغ -توهموا- ببديل مشؤوم، جاءت تلك الدعاية والرعاية لما يسمى بالنظم العلمانية الغربية، وتعالت أصوات الأبواق العلمانية والأحزاب الديمقراطية، ولعب الإعلام دوره اللعين، وضجت قنواته بكل ما هو غث ومرير.

ومن هنا نشاهد كيف كان تركيز الأمريكان وبشكل مستمر على إضعاف البعد العقائدي في مدارسنا، وعملهم على نشر المناهج العلمانية البائسة؛ ليرتسم أمامنا بجلاء مشهد التحول التاريخي في الدولة العثمانية إبان ضعفها.

وتمكن العميل البريطاني المتسلق كمال أتاتورك من مسح كل ما يتعلق بالإسلام، فحقق للغرب مناه ووأد أي أمل لصعود النفوذ الإسلامي من جديد. نعم، لقد كانت تلك الحقبة انعطافة جادة في تاريخ النفوذ الإسلامي العالمي، ولكن نحو ضفة الضعف!

عملاء يستهدفون ثغر التعليم

وسنجد الكثير من عملاء الهيمنة الغربية الذين يعملون على تغيير المناهج الدينية والتربوية التعليمية من صبغة إسلامية إلى صبغة لا دينية، يتفانون في تنفيذ هذه الأجندة بعد عملية تطويع للمؤسسات التي تتولى إدارة هذه الثغور الدينية والتعليمية.

فتنتهي العملية بإنتاج جيل متجردة أفكاره من كل صفة إسلامية، بل يتم العمل على بناء شخصية علمانية بحتة تفصل الدين عن حياتها وسلوكياتها بدعوى ضرورة العصر ومحاباة التطور والحضارة الغربية الغالبة -إلى الآن-. إن الأمريكان يعتبرون هذه المدارس خطرًا حقيقيًا، وإن لم يتمكنوا من السيطرة عليها عن طريق الاختراق المنهجي، فإنهم لا يتوانون في القضاء عليها وتدميرها تدميرًا تامًا بالقصف الهمجي البربري.

كما شهدت لذلك مدارس أفغانستان وويزرستان لتحفيظ القرآن، أين قتل الأطفال بدم بارد يحملون في أيديهم مصاحفهم الملطخة صفحاتها بدمائهم الزكية؟! وقد برر الأمريكان هذه الجرائم بكون هذه المدارس تخرج إرهابيين!!

فإن كان هذا ما يتربص بأبناء المسلمين في مدارسهم وهم في بلادهم، فما بالك بما يتربص بأبناء المسلمين على أرض أمريكا؟! خاصة وأننا نمر بزمن يعتبر فيه الالتزام إرهابًا، ويجلب الملتزم أعين الاتهام والحصار والمراقبة، وتصبح تنشئة طفل مسلم في بلاد كأمريكا مهمة عويصة!

التعليم في أمريكا

لا يتلقى أبناء المسلمين في أمريكا العلوم الإسلامية واللغة العربية إلا من خلال مدارس العطلة الأسبوعية التي تعمل في يومي السبت والأحد فقط، وقد خضت تجربة فريدة في هذا المضمار أدركت

من خلالها عمق الخطر الذي يتربص بجيل كامل ولد ونشأ في أكناف الرعاية الأمريكية. ولا أبالغ إن قلت إن التعليم يعد من أشد الثغور حساسية في بلاد الغرب، فقد واجهتنا أخطار مدمرة لحاضر ومستقبل أطفال المسلمين، وبالكاد استطعنا أن ننتشل بعضهم من مستنقعات الكفر الأكيد والإلحاد وتدمير للذات مرير!

كنا نسعى لتعليم اللغة العربية والقرآن وترسيخ المفاهيم الإسلامية الأساسية، وكذا التربية الإسلامية المتينة، ولكن كانت المفاجأة أن الكثير من الأطفال يرتادون المدارس الأمريكية في ذات الوقت، وينفتحون على التلفاز وقنوات أمريكية تعاني من الإسلاموفوبيا.

لقد كانت المواقف كثيرة ومرهقة، حين نضطر للجلوس الساعات الطويلة نصحح المفاهيم ونعلم الطفل المسلم أن الإسلام ليس إرهابًا، وأن لبس الحجاب فضيلة وليس تخلفًا، وأن تربية الكلب ليست الدليل على الحرية والتفوق! وأن المسلمين أمة واحدة.

كنا نعمل أغلب وقتنا على تصحيح الخطأ ورد الشبهات التي تسربت لقلوب غضة طرية، فيخرج الطفل مستنيرًا مقتنعًا مبتهجًا، ولكن إلى متى؟! لقد كان هذا التحدي الحقيقي لمهمتنا في وسط نواجه فيه موجات حادة وعنيفة من الجهة المقابلة تسرق أطفالنا المسلمين وتسرق أحلامهم وآمالهم وترميهم في أحضان الكفر والانسلاخ من دينهم القويم!

تياران متنافران

أولئك الأطفال، ببراءتهم وعزيمتهم الجميلة، كانوا يعانون من تنافر قوتين، قوة التعليم الإسلامي أيام العطل في مدارس المسلمين، وقوة التعليم الأمريكي طيلة أيام الأسبوع الدراسي في مدارس الأمريكان.

حقيقة، كنت أشاهد ذلك العراك الذهني وذلك الاضطراب وذلك التنازع الذي يعيشه صدر ذلك القلب الصغير فلا يدري إلى أيهما يتجه بإخلاص، وكم كان مؤلمًا أن ينشأ هذا الطفل في عمق هذا التنازع يبحث عن مسلك، فلا ينجو من التيه إلا من رحم ربي!

وتزداد أعراض هذا التيه وهذا الاضطراب وهذا التجاذب كلما تقدمت سن الطفل به، وشارف على مرحلة ما تسمى المراهقة، هنا تبدأ المشاكل الحقيقية، بشخصيات تريد العيش على طريقة الأمريكان وفي نفس الوقت تجد السلطة الأبوية المسلمة تقف لتمردها بالمرصاد! ليس هيّنًا أن تشاهد ابنتك تتهم المتحجبة بالتخلف، أو أن تشاهد ابنك يصف المسلمين في بلادهم وهم يقاتلون عدوًا غازيًا بالإرهابيين! ليس هينًا أن تشاهد الولاء تحول للأمريكان بدلًا من أن يكون لأمة محمد -صلى الله عليه وسلم-.

ليس هينًا أن تشعر بأن الإسلام الوحيد المقبول في أمريكا هو الإسلام بمقاسات أمريكية، وهذا يؤكد فساد معلومة لطالما حرصت على نشرها الثقافة الأمريكية في أوساط المجتمعات الأخرى.

وهي أن أمريكا بلاد التعددية، بلاد الانفتاح والترحيب بكل الثقافات الأخرى، لكن في الحقيقة هي ترحب بها بشرط واحد هو أن تُأمرِكَها، وتحولها وتطوعها تطويعًا للمقاسات الأمريكية، وهذا ما حصل مع الإسلام.

حيث وصل مكرهم في تشويه هذا الدين العظيم أن شاهدنا نساء تؤمّ رجالًا، ومساجد يصلي فيها المصلون مختلطين رجالًا ونساءً، وصدرت الفتاوى العجيبة الغريبة التي تهدم أسس هذا الدين من أصلها، وتحطم معالم الولاء والبراء من داخلها!

العمل في الجيش الأمريكي

ولنعلم أن الأمر ينتج عنه تبعات ثقيلة، فقد التقيت فتاة شامية كانت تقدم طلبًا للعمل في قاعدة عسكرية أمريكية، وتم قبولها، وكانت سعيدة بهذا الإنجاز أيما سعادة، بينما كانت تفتخر بمزايا الوظيفة الجديدة.

كانت هذه الفتاة المسلمة كغيرها من أبناء الإسلام ممن ولدوا في أمريكا، تعمل في جيش محارب للمسلمين، لا زالت دماؤهم لم تنشف من على ثرى الأرض في فلسطين وأفغانستان والعراق وغير مكان؛ بسبب قنابلهم وأسلحتهم الفتاكة وجرائمهم بحق العزل والمدنيين بلا أدنى رحمة أو هوادة، تقودهم قيادة ترفع الصليب في كل مناسبة وبدون مناسبة!

تجربتي مع التعليم

لم يكن يسيرًا أن أجمع بين دراستي ونشاطي الدعوي ثم الانشغال بالتعليم وإدارته في أوقات العطلة الأسبوعية، ولكن لأن الحاجة ماسة والثغر فارغ كان لابد من إقبال وسد.

وقد استغرقنا وقتًا حتى تمكنا من توفير المناهج والمعلمين وتقسيم المدارس وإدارتها بحسب الحاجة لها في المناطق المأهولة بالجاليات المسلمة، ثم العمل على إقناع أولياء الأمور بضرورة تسجيل أبنائهم في مثل هذه المدارس. مع أن بعض الآباء كانوا يتحججون بكونها أيام عطلة وأبناءهم يتلقون حجمًا من العلوم خلال الأسبوع كبير، وهم بحاجة لأخذ قسط من الراحة نهايته، ثم ازدحام برنامجهم بمثل هذا الشكل سيؤخرهم عن تحصيل علمي مرغوب.

إلا أن الخطب والمحاضرات والدعوات والتوصيات كان لها كبير أثر في أولياء الأمور، واستجابت شريحة كبيرة شعرت بمسؤولية تعليم أبنائها دينهم ولغتهم في وسط قد يفقدون فيه أصالتهم بأسهل ما يكون.

كان مبهجًا إقبال أولئك الصغار والكبار على مدارس نهاية الأسبوع، ولهذا كان زرع ترياق الحب لهذا الدين همة كل منا، مديرًا كان أو معلمًا، بسلوكه ونشاطه وانضباطه وتفانيه في التعليم والتقديم.

وقد كنا نحرص على الاستعانة بتاريخ المسلمين الماجد، والذي -رغم حاضرهم التعيس- إلا أن صفحاته المشعة روعة كان لها بالغ الأثر في بناء شخصيات معتزة بدينها ومتلهفة لمعرفة المزيد عنه وعن لغة قرآنها.

لقد صادفت أطفالًا يحملون من الشغف بهذا الدين ما لم أجده إلا لمامًا في بلداننا؛ كانوا يحفظون ويراجعون ويسألون ويتسابقون بجدٍ، وحين نطالب أحدهم بالتطوع لعمل خيري يكون السبّاق والمتقِن!

لدينا القوة ولكننا الضعفاء

لقد أدركت أن لدينا القوة العظمى في بناء جيل سامق، ولكن ما يحصل هو الضعف الذي ينتابنا نحن، يعترينا من الداخل، يجعل منا عجزة على إيفاء هذا الدين حقه والقيام بواجباته على أكمل وجه.

إنه التقصير وعدم الإحساس بالمسئولية الذي نخر في عظامنا، فكانت النتيجة أن أذل الله شعوبًا كثيرة منا، لم تعرف بعد أن عزتها تكون بالتمسك بدينها، لا الانجرار خلف تبعية غربية سخيفة، مثقلة بالتناقضات!

السلطات الأمريكية والتعامل مع أولياء الأمور

لستَ حرًا في التعامل مع أبنائك، في أمريكا أنت مراقب، أنت متهم، وقد تصبح بين لحظة وأخرى مجرمًا بسبب ضربك لابنك أو تأديبك لابنتك!

وأذكر في أحد الأيام أن سيارة الشرطة وصلت إلى بيت عائلة مسلمة، وطرق شرطيان الباب، ليقدما تهديدًا صريحًا للأبوين بانتزاع أبنائهما منهما إن استمرت شكاوى الجيران منهما في تعنيف الأطفال! وهكذا يجد الأبوان أنفسهما في حرج وحصار وضيق عند التعامل مع أبنائهما وضرورة تأديبهم أو تقويمهم، فهناك أعين قد تكون ترمقهم هنا أو هناك، ويكفي الوشاية لدفع الثمن غاليًا! وهكذا أيضًا يجد الشباب المتهور فرصة لصد السلطة الأبوية بمجرد رقم يتصلون عليه ويشتكون إليه! وقد شاهدت

بنفسي طالبة عندي في الصف، كثيرة التدلل والتذمر وترفض أداء واجباتها تأففًا من الدوام في المدرسة الإسلامية. كانت تأتي مرغمة بسبب ضغط والديها، فتمضي الوقت في سماع الأغاني الأمريكية خلال الدرس من خلال سماعات تضعها في أذنها وهي تهز رأسها لا مبالية بحرمة الفصل، وكذا الدرس!

ثم حين أنكرت عليها فعلتها أمسكت هاتفها الخلوي وهددتني قائلة: سأتصل بالشرطة الآن. فابتسمت بهدوء وأخذت منها الهاتف، وقلت بل أنا من سيتصل بوالدك ليعلمك حسن الأدب. وفعلًا، ما أن هممت بالاتصال على رقم والدها حتى تغيرت ملامح وجهها وبدأت تتوسل وتستسمح كي لا أفعل!

فشعرت أنها كانت مغترة بنصيحة صحبة سوء، ثم حين تحدثت مع والدها استاء جدًا وطلب مني أن أقسو عليها ولا أبالي! لقد كان الرجل مشغولًا جدًا بعمله، وفي نفس الوقت يحمل هم تربية ابنته على الطريقة الإسلامية.

وكان هذا حال أغلب آباء الطالبات في ذلك الصف. لهذا كنا نعتبر ثقة الأولياء وحاجتهم للمدارس الإسلامية أمانة عظيمة وجب العناية بها أيما عناية. وأستطيع أن أصف مرحلة ما تسمى المراهقة كأصعب مرحلة تواجه العائلات المسلمة في أمريكا، فهي المرحلة التي سنرى خلالها تمردات من كل قبيل وصنف.

أسئلة تدور في خلد الأطفال

يطرح عليّ الأطفال الكثير من الأسئلة، وسرعان ما يبتسمون حين يجدون الإجابة الوافية الكافية. فقد جاءتني فتاة مترددة، تسألني هل الإسلام يمنعها من تربية كلب؟! قلت من قال هذا؟ قالت معلمتي في المدرسة وكانت أمريكية! قلت الإسلام لا يمنعك من تربيته ولكن يمنعك من الصلاة إن لامس ريقه جسدك! فهو نجس والنجس لا يدخل بيت مسلم.

فإن شئت أن تربيه وانتبهت ألا ينجس بيتك وأن تحافظي على صلاتك فلا بأس في ذلك. لقد كانت سعيدة جدًا وهي تسمع هذه المعلومة لأن من حولها كانوا يرون في حبها للكلاب فرصة لإرهابها بالإسلام!

وإن كان سؤال هذه الفتاة عن تربية حيوان، فأخرى كان سؤالها عن قضية الزواج من أمريكي، لم يكن عمرها قد تجاوز الثالثة عشر، ولكنها تتساءل لماذا يرفض الإسلام فكرة زواجها من أمريكي! وأخذ مني الجواب أيامًا لتصحيح قناعتها في أن الحب لا حدود له ويمكن أن يجمع بين مسلمة ونصراني بلا عوائق!

ومن الأسـئلة التي أذكرها كان سـؤال ذلك الطفل الذي قال: أنا لا أريد أن أكون مسـلمًا؛ لأن المسـلمين إرهابيون. فسـألته من أين سـمع هذا؟ قال من برنامج تلفزيوني سـمع فيه المذيعة تعلق على المسـلمين الإرهابيين!

فعجبت لفتى صـغير يتابع برامج كهذه ويتأثر بها ثم لا يجد من يراقبه! وهذا إن دل فهو يدل على بعد الأهل عن ابنهم وما يشـاهده! تجنبت الإجابة المباشـرة لسـؤاله، ولكنني بدلًا من ذلك أخذت أحدثه عن قصـص البطولات في تاريخ المسـلمين، فكسبت انتباهه التام وشغفه الكامل بمثل هذه القصص، وحينها علمت أنني قد طرقت باب قلبه، واسترجع محبته لدينه.

ولعل أخطر ما مر علي من أسئلة، تلك التي وجهها لي أولئك الأطفال الذين كانوا يبحثون عن الفرق بين النصـرانية والإسلام، وكانوا يبدون لي إعجابهم بالكنيسة، وبعد التحري اكتشفت أن هناك فريقًا أمريكيًا مبشـرًا كان يعمل على اسـتقطاب أطفال المدارس ويشـجعهم على النصرانية، كان هذا أمرًا خطيرًا جدًا؛ فالأطفال يبنون قناعاتهم منذ الصغر، ومع بعض الغفلة سنتفاجأ بنصراني في بيتنا المسلم!

أمانة

من الصـعب أن ألخص في سـطور تجربتي مع التعليم في أمريكا، ولكن الشيء الواضح أن هذه الجهود، وإن كانت بسـيطة وضـعيفة، إلا أنها سـاهمت في حفظ بعض أطفال المسـلمين هناك، وتمكنت من إبقاء شعلة الإسلام تنير بيوتهم كل يوم سبت وأحد.

وتمكنـت من تفادي الكثير من الأذى والضـــرر الفكري لجيل قادم قد تســمم من مدارس غربية وبرامج إعلاميـة ظـالمـة. لهـذا فإن أول ثغر علينا النظر إليه بجدية هو ثغر التعليم حين تكون المســألة متعلقة بنهضـة الأمة من جديد، وتصحيح الأخطاء والإعداد لمرحلة العمل في سبيل أن نغير واقعنا المنهزم إلى واقع مشــع منتصــرا! لقـد خلصــت من خلال تجربتي مع التعليم في أمريكـا بـأن زرع القيم والمبـادئ الإسلامية المتينة في صدور أطفالنا لهو واجب وفرض على كل أب وأم ومربٍّ ومربية، فإن قصّر بعضهم في هذا الثغر فعلى الغير محاولة سده بتفانٍ وجد، وأجر المسابق على الله.

لقد أدركت بقوة أن التعليم ثغر مستهدف، وضعفه ضعف أمة، ولن نقوم من جديد بدون استدراك

لهذا الثغر وحفظه وتطويره.

القوة العسكرية لأمريكا

تمامًا كما نشأت على الحروب وذاع صيتها بعد الحرب العالمية الثانية لتكون القطب الأوحد القائد للنظام العالمي، تمكنت أمريكا من فرض نفسها على القوى الكبرى بواقع القوة العسكرية المتطورة والمتزايدة، وهي قوة لم تأتِ من فراغ؛ بل قامت على نهج استعماري نهب من خيرات البلدان الأخرى المستضعفة الثروات والأموال التي تمول بها أمريكا ترسانتها العسكرية وطواقمها المنتشرة عالميًا في قواعدها الكثيرة. وهذا ما يفسر تاريخ أمريكا الاستعماري في الغالب، في وقت دأب فيه الباحثون العسكريون الأمريكيون على تطوير واستيراد التكنولوجيا اللازمة للأهداف الاستعمارية اللامتناهية.

التمويل العسكري

ولا شك أن المصدر الأساسي لملأ الخزينة الأمريكية كان بداية نهب الشعب الأمريكي نفسه، فهو يدفع الضرائب رغم أنفه، وبشكل متواصل وإجباري، ثم بعده نهب عالمنا الإسلامي، وخصوصًا ما يسمى ثروات الخليج النفطية التي يحصل عليها الأمريكان بأثمان زهيدة وبلا ثمن، وهي بمثابة عصب وقود حروبهم وآلياتهم، ناهيك عن السرقات الكبرى لثروات المسلمين إبان الحروب، كما ثبتت سرقة الذهب والمعادن الثمينة من العراق وغيرها من أمصار اغتصبت خيراتها القوات الأمريكية سرًا وعلنًا. أيضًا لا ننسى العطايا والمنح التي تبلغ أرقامًا مذهلة تُغتصب من أموال المسلمين، وكيف لنا أن ننساها وهي تقدم كعربون وفاء ومحبة وخضوع ومذلة جزية للأمريكان من قبل الطغاة ولا كرامة؟!

وحين أتأمل في حجم الأموال والمساعدات التي قدمت للجيش الأمريكي إبان حرب الخليج الثانية، أتعجب من حجم الذل الذي تفرضه الأنظمة الطاغوتية على شعوب المسلمين؛ حتى لا يجرؤ أحدهم على الانتفاض أو إنكار هذه السرقات الكبرى في تاريخ أمة الإسلام، حتى المياه المعدنية كانت تقدم للجيش الأمريكي من بني جلدتنا، ناهيك عن الهدايا الثمينة والأعطيات؛ كتلك الساعات التي حظي بها جنود الجيش الأمريكي وتعدادهم بالآلاف هدية من قبل أحد طواغيت العرب الذين ينهبون أموال المسلمين ويدفعونها قربانًا للكافرين، عن طيب قلب ورضا خاطر، في وقت تئن فيه ضمائر وبطون المسلمين المستضعفين قهرًا وكمدًا.

قوة عسكرية, ولكن

لكن، وإن كانت قوة أمريكا العسكرية التي تريد أن يرهبها العالم كله عظيمة، وترسانتها الجوية والبرية والبحرية كبيرة، وعدد قواتها ومرتزقتها مديدة، ورؤوسها النووية خطيرة ومهيبة، وأن الدعاية

الإعلامية بما فيها الهوليهودية تصور الجيش الأمريكي بالأعظم قوة وتسليحًا في العالم لتزرع الانهزامية في نفوس أعدائها ومنافسيها... إلا أنه، ومع هذا كله، منيت هذه القوة الضخمة بخسائر مهينة مذلة في بعض بقاع المسلمين، حين أخضعتها حرب العصابات الشرسة التي قادتها ثلة مؤمنة تؤمن أنها تجاهد في سبيل الله، وأجهضت آمالها على أرضهم، لينعكس لنا مشهد سنة إلهية، سنة تؤكد أن النصر ليس بميزان القوى وإنما بميزان الإيمان.

هذا ما كان له دور كبير اليوم في تغيير نظرة الخبراء بشكل جذري حول قدرات الجيش الأمريكي. نعم، لقد أصبحنا نتحدث عن ضعف في القوة العسكرية للأمريكان، وقد نشرت العديد من التقارير والبحوث التي تؤكد صحة هذا الحكم.

وحسب بعض المحللين ظهر ضعف الأمريكان في عدة مواقف دولية في الآونة الأخيرة، وإن حاولت أن تداري هذا الضعف بطريقة دبلوماسية أو سياسية أو حتى إعلامية ما. ولعل أكثر فضائح هذا الضعف كشفتها كل من العراق وأفغانستان، من جهة حجم الخسائر المادية والبشرية الكبيرة، ثم طول أمد الحرب التي استنزفت الخزانة الأمريكية وطاقات الجيش بشكل مستمر، وإلى هذه اللحظة.

وكذلك كشفتها سوريا حين برز القيصر الروسي يناطح قرن الأمريكان في أرض هي من أولى الأهداف الأمريكية في ما يسمى الشرق الأوسط، واضطر الأمريكان لتقبل هذا الصعود الروسي بسبب ضعف حقيقي اعترى الهيكل الأمريكي، وليس لقوة روسيا المتزايدة كما قد يتوهم البعض. ويؤكد هذا الضعف ذلك الانقسام الداخلي الصارخ في المجتمع الأمريكي، والذي منذ تولي الرئيس الأمريكي ترامب –المتهم بفوز هزلي دعمته الآلة الاستخباراتية الروسية- لا زالت التصريحات من البيت الأبيض تصدر مضطربة عند الأزمات كما ظهر ذلك في أزمة العراق مع الأكراد، وأزمة الخليج مع قطر، حين خرجت تصريحات الرئيس مخالفة تمامًا لتصريحات وزارتيه الخارجية أو الدفاع! وأصبحت واضحة للجميع الحرب التي يخوضها الرئيس مع مؤسساته الإعلامية والاستخباراتية التي تلاحقه لنشر فضائحه، ويرد هو بالمثل أو بالضعف.

ترامب ذكي أم أخرق

لم يكن الرئيس الأمريكي أخرق إلا في تعامله مع المسلمين، لأنه لم يحسب حساب العواقب الخطيرة لاستهانته بأمة دينها الإسلام، ولكنه في الجهة المقابلة ذكي في تعامله مع بني جلدته. ولأوضح الصورة أكثر؛ أضرب مثالين بسيطين: فترامب عندما لاحظ تآمر فريق من ساسة الأمريكان وأصحاب النفوذ عليه واستشعر جديتهم في العمل على عزله، ضربهم ضربة قاضية، كانت الاعتراف بالقدس عاصمة

لدولة الصهاينة؛ فكسب بذلك الدعم الكامل للوبي الصهيوني، وهو اللوبي المتغلغل في دوائر صنع القرار الأمريكية وذو النفوذ المؤثر العميق، ما جعل من مشروع عزله حبرًا على ورق.

بنفس الطريقة وسياسة الهجوم بتسديد الضربات الاستباقية، عندما لاحظ ترامب تهديدات الأجهزة الاستخباراتية له بكشف قرائن تؤكد تدخل الروس في إنجاح انتخابات الرئيس المثير للجدل، وكشف خيوط علاقة له مع عدو الأمس الذي خاضت معه أمريكا حربًا باردة عويصة لسنوات، قام فورًا بإصدار مذكرة تفضح أنشطة هذه الاستخبارات ووصمها بأنها مشينة بحق الشعب الأمريكي، مذكرة شغلت أذهان الأمريكيين فأنستهم ترامب، وكان المثل الشعبي "تغدى بهم قبل أن يتعشوا به". وعلى هذه السياسة أتقن ترامب فن الهجوم على خصومه الأمريكان. وأما في تعامله مع طواغيت العرب فلا أراه ذكاء ولا غباء، وإنما حظه كان في نوعية طواغيت ذلة وصغار لا يحتاج ترويضهم وتوظيفهم لبذل، إنما خدماتهم مفتوحة له سواء بطلب منه أو بدون طلب.

حروب العصابات والضعف الأمريكي

إن تأثير حروب العصابات الأخيرة التي خاضتها أمريكا، ولا زالت تخوضها في بعض بلاد المسلمين، أدت بشكل مباشر لإضعاف القوة الأمريكية الضخمة، وقد كشفت مجلة "فورين بوليسي" الأمريكية أن الولايات المتحدة الأمريكية تواجه مشكلة حقيقية من خلال نقص كبير في الميزانية الدفاعية والعسكرية، لدرجة أن القوات الأمريكية ستصل إلى مرحلة لا يمكنها الإيفاء بالالتزامات المطلوبة منها في العالم.

وقد نقلت المجلة تصريحات المحلل العسكري الأمريكي "دان غور" الذي قال: «فعليًا، اليوم نواجه مشكلة كبيرة؛ إذ ليس لدى الجيش الأمريكي سوى ثلاث فرق قتالية مجهزة ومدربة لخوض معارك وعمليات من أصل ٥٠ فرقة موجودة»، وأضاف غور: «إن نصف المقاتلين والمجندين المجهزين هم يتبعون لفرق المارينز والبحرية، أما الباقون فهم يعانون من سوء التمويل، بالإضافة إلى الكثير من العربات والآليات التي بحاجة إلى صيانة».

الضعف الذي تمر به القوة العسكرية الأمريكية شمل أيضًا قطاع البحرية الأمريكية اليوم، مع تراجع كبير في عدد السفن التابعة لسلاح البحر من ٥٩٤ عام ١٩٨٧، إلى ٢٧٨ حسب نفس المصدر. وأضافت المجلة أنه وفق مؤشر "هاريتج" للتصنيفات العسكرية، اعتبر تصنيف الجيش الأمريكي هامشيًا ويتجه نحو الضعيف.

إضافة لهذه المعطيات فنلاحظ جرأة المنافسين اليوم لأمريكا على مخالفتها وانتقادها علنًا؛ لقد بتنا نرى الأوروبيين يلوحون برفض صارم لقرارات ترامب في الكثير من المناسبات، واختلافاتهم الصارخة في الكثير من السياسات لم تعد شيئًا غريبًا، وها هي الساحة السورية اليوم تعكس درجة الضغط الذي تعانيه أمريكا أمام منافستها السابقة روسيا، فضلًا عن الصين التي بدأت ترتب أوراقها بإعادة فتح طريق الحرير البري الذي يمتد إلى أوروبا؛ حتى تقطع الطريق على أي تهديد أمريكي من خلال الاستهداف أو التضييق على ممراتها البحرية، خاصة بعد التراشقات بين إداراتها وإدارة ترامب، الأخيرة.

كوريا الشمالية بدورها هددت أمريكا بضربات نووية في عقر دارها، ولم تنفع التهديدات الأمريكية من جهتها في إحداث أي حالة ذعر أو وجل أو تراجع عند بوينغ يانغ. بل على العكس، عندما استعرت التصريحات الاستفزازية، بدأ الأمريكان يلينون الجانب بعدما أدركوا أن لهجة التهديد التي تصدر منهم كقادة للنظام الدولي القائم لم تجدِ نفعًا مع كيم أونغ، الرئيس الكوري العنيد.

ولعل أبرز مشهد لفشل القوة الأمريكية وضعفها ضعفا بائنًا، هو ما يحدث في أرض أفغانستان، أين نسمع نداءات النفير الأمريكية، والتي إليها تحولت الجيوش من العراق إلى كابول، ومن كل الوحدات الأمريكية إلى الأرض التي كلّت جيوش كافرة أن ترضخها، وسخط الرئيس الأمريكي ترامب لم يُخفَ على أحد ليؤكد لنا مدى الورطة التي تورط فيها الأمريكان في أرض خراسان، وبالتالي الضعف الجليّ لهذه القوة في حسم المعركة، وبدل أن تنقص قوة طالبان تضاعفت وتطورت وأضحت أكثر تمرسًا واحترافًا، لقد أصبحت الرقم الأصعب على الأمريكان! فيا لخيبة دولة عظمى عجزت أن تخضع ثلة مغبرة.

سياسة الأمريكان الجديدة لتجاوز الضعف

الكثير من الدلائل والقرائن تدفعنا لتشخيص حالة الضعف التي يمر بها الأمريكان اليوم عسكريًا، بل وسياسيًا واقتصاديًا بالتبعية. وهذا يدفعنا من جهة أخرى للنظر في سياسة الأمريكان في تطويع العالم، فلم تعد سياستها كما عودتنا سابقًا عن طريق القوة العسكرية المباشرة والتدخل الآني بجنود أمريكيين، ولكن بدلًا من ذلك لجأت إلى وكلائها في مناطق الحروب للقتال نيابة عنها.

ووظفت هيمنتها التي امتدت لعقود، وشبكاتها الاقتصادية والسياسة التي لا زالت تسيطر على بعض الأنظمة والشعوب، ثم مكرها في ابتزاز الأموال ونهب الثروات بعقلية استعمارية تداريها الديمقراطية والعلمانية ومصلحة الحريات باسم الإنسان. نعم، إن أمريكا لا زالت تبذل الغالي والنفيس وكل ما يتاح لها من أجل أن تفرض رأيها على كل ما يجري في عالمنا، وتحديدًا الإسلامي. فكانت اللاعب الرئيسي

في أغلب الساحات، كما افتعلت الكثير من الحروب الدامية الظالمة، وأتقنت فن صناعة الأعداء. ولا شك أن لهذا أبعادًا استراتيجية أخرى غير تحصيل مداخيل خارجية، أو فرض نفسها كدولة مهيمنة، ولكن أيضًا لتشعر منافسيها ألا أمل لهم في منازعتها هذه المكانة، ثم مع كل هذا الجمع لم تفلح.

عندما تصبح الحرب رغم الاستنزاف ضرورة

وإذا نظرنا إلى قوة الأمريكان العسكرية فسنلاحظ أنها نجحت في افتعال وتأجيج ما يسمى الحرب على الإرهاب، ثم الحروب والأزمات الداخلية، دون الحديث عن سلسلة الحروب التاريخية التي أشعلت نارها في كل زاوية في الأرض، والتي تعد ضرورية للحفاظ على مصالحها، وعلى رأسها زيادة مبيعات الأسلحة وتنشيط سوقها، ثم حفظ مرتبتها المهيمنة في العالم؛ وهذا ما يجعل السعي إلى زيادة قدراتها التسليحية وحفظ ميزانية الخزينة العسكرية كافية لتغطية حاجات الاستنزاف الحربي واللوجستي لأجهزتها وجيوشها ضرورة، فهو يعد أولوية قصوى مهما كانت الخسائر وبلغ حجم الاستنزاف.

الحروب استثمار

وبافتعال الحروب وتأجيجها تثري أمريكا قوتها العسكرية وتحصل على زيادة نفوذ، وتعتقد العقلية الأمريكية أن هذه هي أنسب طريقة للمحافظة على مكانتها العالمية المهيمنة، وأفضل السبل لتحجيم طموحات الأعداء والمنافسين، وأنسب وسيلة لتجربة الأسلحة الجديدة وتفريغ المستودعات من الذخيرة، وربما الخيار الوحيد الذي رغم ما تتكبده وتخسره بسببه، إلا أنه يحفظ -ولو مرحليًا- الوجه المتغطرس والمستكبر والمتصلف للأمريكان.

وإذا نظرنا في التاريخ الأمريكي، نجد أغلبه مضى في حروب، فهي إذن ليست مجرد سياسة، بل عقيدة حربية تربت عليها الأجيال الأمريكية المتوالية، وتجذرت كمفهوم أساسي لغريزة حب البقاء، ولكن لم تكن هذه العقيدة بلا ثمن، بل دفع بسببها الأمريكان الثمن الباهظ وإن كابروا، دفعوه من أرواح جنودهم وخزائن أموالهم وسمعتهم التي سقطت بسقوط أخلاقهم وبعدوانهم وبجرائمهم.

الحروب التي خاضتها أمريكا

منذ نشأتها كانت محارِبة؛ فتاريخها ثري بأسماء الحروب، ورؤساؤها مهووسون بقيادة هذه الحروب، وإذا ألقينا نظرة على تاريخ أمريكا سنجد أول حرب لها مع انتخاب أول رئيس لها، وهو جورج واشنطن في عام ١٧٨٩م.

وآنذاك كانت أرضًا تضم السكان الأصليين من الهنود الحمر والوافدين إليها من أوروبا، والذين ما أن وطأت أقدامهم ثرى أمريكا، وطابت لهم الإقامة حتى أطلقوا حربًا شرسة لاقتلاع الهنود من جذورهم، وإقامة دولتهم التي حضنت كل الوافدين للأرض الجديدة.

دولة بدايتها الغزو

ثم ما أن قامت الدولة الأمريكية، وبعد ٤٤ سنة فقط من إرساء قواعدها، غزت القوات الأمريكية نيكاراغوا في ١٨٣٣؛ لتعكس العقلية الاستعمارية التي انتهجها ساسة قادة هذه الدولة، والذين لم تتوقف طموحاتهم عند هذا التاريخ، بل بعده بسنتين، وفي سنة ١٨٣٥ دخلت قواتهم البيرو غازية!

ويبدو أن شهية الأمريكان للاحتلال اتسعت أكثر بعد غزوها أرضًا مكسيكية في السنة اللاحقة، وهي الأرض التي أضحت بعد ذلك أحد أشهر ولاياتها، وعرفت باسم تكساس. ثم نراها اليوم تسعى لبناء جدار يعزل أمريكا عن المكسيك؛ خشية أن يتسرب لأرضها مهاجرون غير شرعيين، في حين سبق وأن سلبتهم أرضهم قبل ذلك بعقود ولا حساب.

ولأنها لم تواجه أي رادع؛ توسعت الأطماع الأمريكية لتضم أراضٍ مكسيكية أخرى، تعرف اليوم بكاليفورنيا ونيومكسيكو، وكان هذا بتاريخ ١٨٤٨. وجدير بالذكر أن تكلفة هذه الحرب، التي خاضتها أمريكا منذ ١٨٤٦ والتي امتدت لسنتين، كلفت الخزينة الأمريكية نحو ٢,٤ مليار دولار، وانتهت باغتصاب الأراضي المكسيكية بكل غطرسة.

واستمر الصيت العسكري الاستعماري البربري الأمريكي في الانتشار، ففي ١٨٥٤ استهدف الأمريكان ميناء غراي تاون في نيكاراغوا وحطموه تحطيمًا؛ كرد فعل على رفض الحكومة النيكاراغوية دخول عميل أمريكي لأرضها.

وبقيت تتربص بنيكاراغوا حتى أعادت الكرة في ١٨٥٧؛ لمحاولة إفشال وليم روكر خلال عملية تولي السلطة، وقد كان يعتبر مناهضًا وعدوًا للأمريكان حينها.

وجاءت سنة ١٨٥٥م لتسجل غزو الأمريكان للأورغواي، ثم قناة بنما. ولم تختلف عنها سنة ١٨٧٣م حين سجلت غزو كولومبيا، التي بقيت تعاني من تعديات الأمريكان باستمرار.

تعديات جرت في ذات الوقت الذي يتدخل فيه الأمريكان في هايتي وتشيلي وكولومبا ونيكاراغوا وكوبا، وهذه الأخيرة اقتلعت من ملكيتها خليج غوانتانامو في سنة ١٨٩٨ بعد حصار بشع، واليوم تزيد التاريخ بشاعة وقبحًا حين تأسر فيه المئات من المسلمين في أسوء ظروف وحشية بربرية عرفها التاريخ!

وهي تفتخر ولا تبالي، بل ويزيد الرئيس الأمريكي ترامب في غطرسته وكبره وعناده، فيرفض جميع الانتقادات للسمعة شديدة السوء للسجن، ويأمر باستمراره في التعذيب، وأي تعذيب؟ إنه الأقبح في تاريخ البشر!

أما في ١٩٩٢، فقد توجهت أنظار السياسة الأمريكان باتجاه هندوراس، وتمكنوا بعد تربص وتدخل وعدوان من الاستيلاء على ست مدن من مدنها في ١٩٠٧. واستمرت هذه الغطرسة وهذا العدوان ليصل مداه في ١٩١٤، حين سرقت القوات الأمريكية بإنزال جوي البنك المركزي لهايتي بحجة استرداد ديون الأمريكان بأسلوب همجي بربري لم يسبق له مثيل! وانتهت في ١٩١٥ باحتلال كل هايتي حتى عام ١٩٣٤.

قلبت النظر في جميع صفحات تاريخ الأمريكان فلم أجد غير الغزو والسطو والتدخل والعدوان، وها هو تاريخ ١٩١٦م يسجل تدخل الغطرسة الأمريكية في الدومينكان؛ لصد الثورة التي قامت ضد السلطة الفاسدة، وأجهضت مساعي الثوار، وفرضت عليهم حكومة عسكرية عميلة لها! تمامًا كما يحصل في بلادنا الإسلامية.

واستمرت بعد ذلك التدخلات الأمريكية في السلفادور وإيران وغواتيمالا وشيلي وكامبوديا؛ فخلعت حكومات وأقامت أخرى بما يوائم غطرستها. وفي ١٩٥٠م خاضت أمريكا الحرب الكورية، وهي أحد أكثر الحروب التي تكبدت فيها الدولة المحاربة الغازية خسائر كبيرة ماديًا وبشريًا، حيث بلغت تكلفتها نحو ٣٤١ مليار دولار، وتكلفتها البشرية أكثر من ٣٤ ألف جندي أمريكي قتيل، وفي ١٩٦٢ حاصرت أمريكا كوبا بحريًا وجويًا.

الحربان العالميتان

ليس عجيبًا أن نجد اسم أمريكا مذكورًا في أكبر الحروب العالمية التي شهدتها الأرض، سواءً تلك التي اندلعت في عام ١٩١٤، والتي بلغت تكلفتها في الخزانة الأمريكية نحو ٣٣٤ مليار دولار، أو الحرب العالمية

الثانية التي كلفت الخزينة الأمريكية ما يزيد عن أربعة تريليونات دولار، وقتل في صفوفها ٤٠٠ ألف جندي أمريكي. والتي انطلقت بمشاركة الأمريكان سنة ١٩٤١، بعد قصف اليابان بقصف ميناء بيرل هاربر الحربي. وكلا الحربين كبدت البشر الملايين من القتلى والدمار والفساد في الأرض!

هيروشيما وناجازاكي

كما أن التاريخ سجل أن أمريكا هي أول من قصف المدن المأهولة بلا أدنى مبالاة، بأطغى وأشد سلاح عرفته البشرية، إنه القنبلة النووية. ففي يوم السادس من أغسطس عام ١٩٤٥، عرفت مدينة هيروشيما اليابانية نهاية مأساوية بشعة، لم يسبق لها نظير في تاريخهم، ولا في تاريخ الأرض.

لقد ألقى على رؤوس سكانها الأمريكان -وبدم بارد- قنبلة نووية مخصبة باليورانيوم أُطلق عليها استخفافًا اسم «الطفل الصغير»، بلغت قوتها التدميرية ١٢,٥٠٠ طن من مادة تي إن تي شديدة الانفجار.

فكانت النتيجة أن قُتل أكثر من ٧٠ ألف إنسان فورًا، في حين تشير آخر إحصائية رسمية لكارثة هيروشيما أن عدد القتلى تجاوز ٢٤٢ ألف إنسان.

ثم بعد ثلاثة أيام فقط من تدمير هيروشيما، كررت أمريكا فعلها الشيطاني في مدينة ناجازاكي اليابانية الأخرى، وهذه المرة بقنبلة نووية أخرى بلغت قوتها التدميرية ٢٢ ألف طن من مادة تي إن تي، قتلت بدم بارد ما يزيد على ٧٠ ألف إنسان.

وناهيك عن الآثار المرضية التي استمرت بسبب الإشعاعات النووية والإعاقات والتشوهات التي ضربت الأجنة في أرحام أمهاتها، كما تلوثت البيئة والهواء وكل ما يتصل بالحياة في تلك الأرض التي داستها الغطرسة الأمريكية يومًا، والأكثر فظاعة هو احتفال الأمريكان بهذا الإنجاز واعتباره دليل قوة وعلو في الأرض، بل ويبررونه بـ«ضرورة» لأجل حياة أمريكا

الحرب الباردة

أما الحرب الباردة فهي الحرب الاستخباراتية التجسسية التي دارت رحاها بين قطبين متنافسين؛ أمريكا وروسيا، وامتدت من منتصف الأربعينيات حتى أوائل التسعينيات، وشهدت هذه الفترة عدة حروب منها الحرب الكورية والحرب الفيتنامية، ثم انتهت بفوز أمريكا وتحطيم أسطورة القيصر الروسي، واستلمت الدولة المحاربة بعد ذلك قيادة النظام الدولي الذي خضع لها طوعًا أو كرهًا.

حرب الفيتنام

ولا يخلو سجل التاريخ الدموي الأمريكي من حرب كانت دليلًا على المرض الجيني «الولع بالحروب البربرية» عند الأمريكان، وهي حرب فيتنام سنة ١٩٥٥. وهناك صال وجال الجيش الأمريكي بأبشع الجرائم ضد الإنسانية، وضد كل ما فيه حياة، بل وحتى الجماد! ورغم حجم الدمار والوحشية والعدوان، خسرت أمريكا الحرب في عام ١٩٧٥م، وسجل التاريخ أحد أسود صفحاتها.

لقد سفك الأمريكان دم مليوني فيتنامي، وجرحوا الثلاثة ملايين، وتشرد أكثر من ١٢ مليون لاجئ، في المقابل خسر الأمريكان ٥٨ ألف قتيل، وأكثر من ١٥ ألف جريح ومئات الأسرى الذين تم إطلاق سراحهم لاحقًا.

وبلغت تكلفتها نحو ٧٣٨ مليار دولار. لقد كانت حرب فيتنام أحد أهم الحروب التي خاضتها أمريكا وأكثرها خسائر، ودليلًا آخر على بربرية الأمريكان.

عدوان مستمر

أما حقبة الصليبي ريغان الذي تولى السلطة في ١٩٨٠م، فانطلقت بتبني الرئيس الجديد مشروع حرب النجوم، وإمداد حلفائه الصهاينة بأموال طائلة. ولم تكن الأطماع الاستعمارية الأمريكية لتقف عند هذا الحد، بل نشرت أمريكا صواريخها في كل أوروبا بعد سنة من تولي ريغان الحكم.

وفي ١٩٨٩م، غزا الأمريكان «بنما»، ولم تزل تحشر السياسة الأمريكية المتغطرسة أنفها في شؤون غيرها بالمكر والخديعة والقوة العسكرية، وإن نظرنا لهذا التاريخ وحده فسنجد أننا قد استثنينا الحديث عن حروب الأمريكان مع المسلمين.

ذلك لأنها لا زالت مستمرة، فآثارها لم تزل في لبنان، أين ارتجت أرض بيروت بصواريخ الطائرات الأمريكية، وفي فلسطين أين يُقتل المسلمون برصاص أمريكي يوميًا، والعراق أين سُجلت أبشع الجرائم في تاريخ العراق وسُلمت أعناق السنة للرافضة.

وقتل مليون ونصف مليون طفل عراقي، فضلًا عن فظائع اليورانيوم والأسلحة المحرمة دوليًا -كما زعموا- التي دمرت العراقيين وأرضهم، وها هي ثرى الحرب لا تزال مشتعلة في أفغانستان والصومال بمواجهة محتدمة ساخنة مع القوات الأمريكية ومرتزقتها ووكلائها إلى اللحظة.

الحرب على الإرهاب

هذا دون أن ننســى الحرب التي أطلقها الرئيس بوش المعتوه، وهي الحرب التي وصــفها بالصــليبية، وافتعل لها اسـم الحرب ضـد الإرهاب، فكانت حربًا مفتوحة لا حدود لها، ولا تعريف منصـفًا يصـفها، ولا عدو محددًا لأسلحتها، إلا كونها حربًا ضد الإسلام والمسلمين باسم الصليب!

ولم تكن الحرب على الإرهاب حربًا واحدة، فقد كانت الحرب على أفغانســتان في ٢٠٠١، ثم الحرب على العراق في ٢٠٠٣ بدعوى امتلاك الرئيس العراقي صـدام حسين أسلحة دمار شامل، وهي الأكذوبة الكبرى في تاريخ رئاسة بوش الابن.

ولا زالت إلى يومنا هذا حربًا عشــوائية، تضــرب في كل اتجاه بعشــوائية واضــطراب، ســرًا وجهرًا، استخباراتيًا وعسكريًا، إعلاميًا وسياسيًا! تعددت أوجهها ولكن الهدف واحد، إنها حرب على الإسلام.

الحروب السرية

ولا يفوتني أن أذكر في هذا البسـط الحروب السـرية التي تدور إلى اللحظة، ويقودها جيشٌ من القوات الخاصـة الأمريكية، التي تنتهك حرمة أي أرض مسـلمة، وتختطف منها مسلمين في عمق الليل، وتخرج بهم إلى أين يسـام سـوء العذاب دون أدنى حقوق أو احترام، ويُطوى سـجل حياة مسلم ومسلمين هكذا بكل صفاقة ولا حسيب ولا رقيب! فحكومات المسلمين ليست إلا فريق خونة وعملاء!

ويجدر لفت الانتباه إلى أن الحروب السرية هذه تبوء بالفشل في الكثير من المرات، ولكن تداري الإدارة الأمريكية هذه السقطات، وتنشر فقط ما كان فيه نجاح -إن شاءت-، وإلا فهي تحت غطاء من السرية!

ولنتأمل تصــريح جون ماكهيو، وزير الجيش الأمريكي، عن أهمية هذه القوات في القارة الســمراء حين قال: "أفريقيا مكان به تحديات اليوم، وإذا تركناها دون الحضــور فيها؛ فســتكون مولدًا لتحديات أكثر في المستقبل".

في حين تأبى التقارير الصـحفية في مواقع أمريكية وأجنبية إلا أن توثق فشل هذه القوات فشلًا ذريعًا في إحكام قبضتها على ما يسمى الجماعات الإرهابية في أفريقيا.

ثم لم يكتفِ الأمريكان بالانتشـار العسـكري على مسـتوى خريطة العالم بشـكل قوي، بل أسندت هيمنتها بمحاولات للسيطرة السياسية والاقتصادية في العالم.

ولكن حروب الأمريكان لم تحقق في كثير من المرات غايتها المرجوة من خلال استراتيجياتها العدوانية؛ ففي أفغانستان، وكذا الصومال، لم تتمكن من إخضاع إرادة الخصوم.

ولا تزال الحرب تدور رحاها بشراسة، وتتكبد القوات الأمريكية وحليفاتها من الخسائر البشرية والمادية الجمة ما أثقل كاهلها، وسلبها النوم، وأبدى الاضطراب على ألسنة رؤسائها!

أمريكا وقضية السلام في فلسطين

أثار إعلان ترامب مدينة القدس المقدسة عاصمة لدولة بني صهيون ثائرة الجماهير، وغضب الغيارى المسلمين، وهذا رد فعل فطري لكل من يحمل حبًا لدينه ومقدساته، لكن المستغرَب هو تلك الصدمة التي بدت ملامحها واضحة على وجوه ساسة السلطة الفلسطينية، حين استيقظوا على فجيعة الصفعة الأمريكية! وما يدفعني للاستغراب هو أن هؤلاء «السذّج» كانوا ينتظرون بجد دورًا أمريكيًا فعالًا ينصرهم ويرد لهم حقوقهم فيما يسمى بعملية السلام! وما هي إلا عملية استسلام.

تاريخ من الفشل

فمنذ أكثر من عشرين سنة وأمريكا تلعب دور الحكم والمدير لعملية السلام بين الفلسطينيين واليهود، ولم تحقق هذه السنوات الطوية أي إنجاز يستحق التقدير سوى مزيد اعتراف بالدولة الصهيونية، ومزيد تواطأ مع جرائمها المتواصلة، ومزيد هيمنة على الحريات الفلسطينية. كل هذا لأجل وأد أي حراك ثوري أو تحرري كانت شرارته تتوقد بين الحين والآخر، عندما ينتفض الفلسطينيون حنقًا على محتل غاصب فتثير غضبتهم الرعب في نفوس الصهاينة، ولو كانت بحجر صغير.

وقع الصراحة

وفي الحقيقة، إن ترامب لم يفعل أكثر من تبيانه الموقف الأمريكي بصراحة، لم ينافق ولم يجارِ السذاجة الفلسطينية، بل عمد إلى أسلوب الصفاقة والوقاحة الأمريكية المعتادة. وحين شاهد موقف الامتعاض من جانب السلطة الفلسطينية أمعن في صراحته، وبدأ يمن بمساعدات الأمريكان بملايين الدولارات، والتي تعتبر كافية لإخراس أي انتقاد لأمريكا، وكأنها صفقة شراء ذمم.

ثم يمعن أكثر بصفاقته ووقاحته حين يعتبر غصب القدس لصالح اليهود هو تقدم إيجابي نحو حل للقضية الفلسطينية، وكأن المعتوه ينتظر أن يكون بعد القدس مساحة لحوار أو مكسب، وصرح بصفاقته المعتادة قائلًا: إن «إسرائيل لها الحق في تقرير ما ستكون عاصمتها، وهذا شرط ضروري لتحقيق السلام»! فأي سلام ينشده المسلمون من قائد صليبي محالف للصهاينة مثل ترامب؟

نظرة على تاريخ الرعاية الأمريكية لعملية الاستسلام

اقترن اسم أمريكا باتفاقية كامب ديفيد في عامي ١٩٧٧ و٢٠٠٠، وبمؤتمر مدريد واتفاقية أوسلو في١٩٩٣، وطابا ٢٠٠١، ومبادرة السلام العربية في ٢٠٠٢، ثم اتفاق جنيف ٢٠٠٣، وبعدها أنابوليس في ٢٠٠٧، ثم اللقاء

السري في الأردن ٢٠١٢، وباءت جميع هذه المفاوضات بالفشل، لم تستطع أن تحقق أحلام الفلسطينيين باعتراف دولي بدولتهم، ولا بضمان عدم تعدي اليهود عليهم وتماديهم في القمع والاستيطان، فإما انقطعت بانتفاضة فلسطينية أبية، أو بمقاطعة يهودية خبيثة.

ثم خلالها برزت أكثر عدم الرغبة الأمريكية في تسوية القضية الفلسطينية رغم المستوى الأعلى من التنازلات من الجانب الفلسطيني، الذي وصل إلى حد التنازل عن أراضيه وحق العودة للاجئين.

تنازلات لم تسمن ولم تغنِ من جوع

ثم إبان رئاسة أوباما، وطيلة الثماني سنوات من إدارته البيت الأبيض لم يتوصل لحل، ولا لتسوية، ولا لتحقيق خطوة متقدمة بين الطرفين، بل انهارت المفاوضات تمامًا في عصره عندما طالب بتجميد الاستيطان، وبدأ الحديث عن حل الدولتين، فالصهاينة رفضوا أي حل يعترف بدولة فلسطينية بحدود ١٩٦٧، أي في الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية، مهما كانت بنوده ومقتضياته.

الأرض مقابل السلام

كان أساس التفاوض بين الطرفين على معادلة ظالمة تقضي بأن تكون الأرض مقابل السلام، فأي عدالة هذه التي تقر للمحتل أن يغتصب أرضي مقابل أن يكف عدوانه عني، ويا ليته يفعل! ويكفي أن نعلم بأن قرارات الأمم المتحدة لم يُنفذ منها قرار واحد، بل أمعن اليهود الصهاينة في اغتصاب الأرضي الفلسطينية وهدم بيوت أصحابها والتنكيل والاعتداء وسياسة العقاب الجماعي، دون أدنى رادع. بل كادت غزة أن تُمسح من الخريطة، ولم تَلقَ إسرائيل ردًا يليق بحجم الجريمة والكارثة.

حقبة ترامب وصفقة القرن

لم يخفَ على متابع دعم ترامب الكامل لليهود منذ أطل برأسه على سباق الانتخابات الرئاسية الأمريكية، ثم كشف الرئيس المثير للجدل عما يسميه صفقة القرن، والتي لا تعد إلا صفعة القرن، وبدأ رده بإغلاق مكتب منظمة التحرير في واشنطن.

تلاه إعلان القدس عاصمة دولة الصهاينة، ثم قطع المساعدات عن وكالة إغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين «الأونرا» الإنسانية لخدمة اللاجئين؛ كوسيلة لإذلال الفلسطينيين، مع العلم أن حجم الإهانات التي كالها الرئيس الأمريكي المتعجرف كانت ثقيلة جدًا، وأثارت عجب وسخط السلطة الفلسطينية، بل والاستغراب. ولا بد أن نشير إلى أن أي تحرك في هذه الصفقة لم يكن بدون موافقة أهم

لاعبين في عملية الخيانة للأمة الإسلامية: السعودية ومصر، وهما الحليفان الاستراتيجيان اللذان يعول عليهما ترامب بلا شك.

ردود السلطة الفلسطينية

نعم لقد تفاجأت، وتأذت أكثر بسياسة الجفاء المفاجئ وتبديل الأقنعة، أو إسقاطها عمدًا؛ لهذا لجأت السلطة الفلسطينية إلى المحافل الدولية، على رأسها الصين وروسيا، في محاولة لسحب البساط من تحت واشنطن. لا شك أن ردودها تبدو جدية، على الأقل بقرار قطع جميع أشكال التعاون مع إسرائيل، بما فيها الأمني الذي دفع ثمنه الفلسطينيون باهظًا.

وأيضا قطع التواصل مع الأمريكان، ومحاولة الضغط من خلال العزلة الدولية للقرار الترامبي الأخير، ولكن المضحك المبكي في ردود السلطة هو تعليق الاعتراف بدولة إسرائيل، وكأن الأمر نسبي يتعلق بمزاج المعترف، بالأمس يعترفون بإقرار تام بهذه الدولة، ثم اليوم يعلقونه، لن نعترف. فيا لها من صبيانية في التعامل!

لا سلام مع الأمريكان

الحقيقة التي وصل إليها بعض الفلسطينيين اليوم ممن كانوا يعولون على أمريكا في إدارة ملف السلام المزعوم، هو أنه لم تكن الجهود الأمريكية في سبيل سلام لصالح الفلسطينيين أبدًا، بل كانت مجرد عملية تطويع للاستسلام، وكل ما هنالك هو أن أمريكا بمكرها روضت العرب؛ فشغلت وقتهم بأوهام وأحلام ترفرف في مخيلتهم طيلة نصف قرن من الزمان، مرت دون تقديم أي حل لصالح القضية.

واليوم حين بدأت بوادر صفقة القرن تتجلى، بدأت معها التحركات في سيناء لتفريغ المساحات الشاسعة كي تكون موطنًا جديدًا للفلسطينيين الذين سيهجرون قصرًا من غزة ليستلمها اليهود في طرفة عين.

ولا أشك لحظة واحدة أن هذا التهجير لن يكون الأول، بل سيليه تهجير آخر يعطي سيناء لدولة بني صهيون؛ كما يؤكد ذلك طموح دولة «إسرائيل الكبرى».

وأما الفلسطينيون فسيذوبون في المجتمع المصري، ويقفل ملفهم كأنه لم يكن. ثم بالنظر لأحداث سوريا، وبالتدخلات العسكرية الإسرائيلية المتواصلة في تلك الأرض، فإن المكر اليهودي يتربص بأرض الشام منتهزًا فرصة الفوضى والضعف التي تمر بها المنطقة والأمة على السواء، لينشر حبال مشاريعه التمددية.

واقع مرير

وسـأختم بقول ريتشـارد فوك الذي عمل في وظيفة المقرر الأممي لحقوق الإنسـان في الإنسـان في الأراضـي الفلسـطينية المحتلة، حين قال: «هناك إدراك عام كبير على مستوى العالم أن الدبلوماسية كما تمت ممارسـتها من ناحية حل الصـراع (الإسـرائيلي-الفلسـطيني) لأكثر من عقدين من الزمن قد فشلت، على الرغم من أن المسألة كانت مشروعًا كبيرًا للحكومة الأمريكية على مدى عقدين من الزمن.

في الواقع، ما هو أسوأ من الفشل أن هذه الدبلوماسية القائمة على المماطلة سمحت لإسرائيل، من خلال المواجهة والسرية، أن تسعى من دون هوادة إلى تحقيق رؤيتها في «إسرائيل» الكبرى «تحت غطاء واقٍ وقاسٍ» من الدعم الأمريكي. خلال هذه الفترة، أصـبح الموقف المحلي الفلسـطيني على نحو مسـتمر يسير نحو الأسوأ. والمحنة الإنسانية للشعب الفلسطيني باتت أسوأ وأكثر حدة من أي وقت مضى».

إن الأمريكان شـريك متواطئ في الإجرام الصـهيوني بشـكل يومي، فكيف يطمع فيها أن تكون راعية لسـلام، بل محرضـة بلا شـك للاستسلام، وانحيازها لليهود ليس بحاجة لدليل مع استعانتها بحق الفيتو الذي يسمح لمدللتها إسرائيل بالتبجح والعدوان بلا رادع أو حتى انتقاص. ثم يكفي حجم الضرائب الذي تجمعه من شـعوبها والمسلمين المقيمين على أرضها لتزود به معاركها ومصالحها الاستعمارية في العالم؛ لندرك حجم الخطر الذي يتوقد شرره من تلك البلاد الحليفة للصهاينة.

نفاق الإعلام الأمريكي

لقد شـاهدت إصـرار الأمريكان على دعم الصـهاينة لتحقيق حلمهم، وكان ذلك يظهر بجلاء من خلال إعلامهم الساقط الذي يكيل بمكيالين؛ حين يبث أخبار فلسطين من جهة بنشر اسم دولة إسرائيل منفردًا دون إشارة لتاريخ الاغتصاب أو الاحتلال اليهودي لفلسطين.

ثم بتصـوير الجاني مجنيًا عليه، وكثيرًا ما كنت أتألم لتلك التقارير التي تعرض قصـف غزة على أنه رد فعل طبيعي وحق مسـتحق لليهود بسبب إرهاب حماس التي تهدد الأحياء الإسرائيلية بصواريخها، ولم يكن هناك تعاليق منصـفة مجردة من أي سـياسـة أو انحياز تنقل واقع الفلسـطينيين المسـتضعفين، وإن سالت دماهم في أرض يدوسها اليوم أبغض الخلق لله.

لقد كان، ولا يزال، إعلامًا منافقًا، يجمل قبح الصهاينة، ويرمي المجني عليهم بتهم الإرهاب والعدوان، ما يجعل المشاهد العارف بواقع الحقيقة يسترجع ويتعجب من سحرة اليهود.

عدو لا حليف استراتيجي

إن المتأمل في الدائرة المحيطة بالرئيس الأمريكي ترامب، كأمثال الهرمجدوني الشديد التعصب للنصرانية الصهيونية بنس، أو اليهودي الأرثوذكسي مبعوث ترامب الخاص لعملية السلام الذي شغل منصب مستشاره لشئون إسرائيل خلال حملته الانتخابية، فضلًا عن زوج ابنته المدللة اليهودي الذي دفع ابنة ترامب لاعتناق اليهودية، يجعلنا ندرك حقيقة الصهيوصليبية التي نتعامل معها في كل يوم.

وهي صهيوصليبية قامت لأجل تعزيز أمن إسرائيل في المقام الأول، وإضعاف المسلمين ومحاربة إسلامهم في المقام الثاني. وإن كان المقامان مرتبطين ارتباطًا طرديًا، لا يتم الأول بدون الثاني، ولا يتم الثاني بدون الأول. إلا أن إدراك هذا الواقع للأسف لم يصل بعد للمستوى المطلوب بين جماهير المسلمين.

نحن بحاجة لأن نفهم العقلية الأمريكية في هذا الصراع كي ندرك موقعها كعدو لا كحليف استراتيجي، وإن لم نزرع هذا الفهم في أذهاننا فسنبقى رهن الهيمنة الغربية إلى ما شاء الله أن يكون.

علينا أن نتخلص من قيود فرضها علينا هذا النظام الدولي العفن، لنكون جديرين بنصرة أرض المسرى والأقصى، وإلا فسيطمر ذكرنا التاريخ كأمة استغفلها عدوها فاستغنت، فكان مصيرها الاستبدال.

شخصية الرجل الأبيض: ترامب نموذجًا

الأشخاص العنصريون من حملة الجينات الأوروبية الشقراء، أو ما يعرف اصطلاحًا "الرجل الأبيض"، عرفت هؤلاء على حقيقتهم في أمريكا، هناك -ومهما تعالت شعارات العلمنة والديمقراطية- يقبع في قلوب أولئك البيض، البياض الأمريكي الأوروبي، تقبع عنصرية ما، عنصرية استكبار على أجناس البشر. لقد صادفتها كثيرًا في كل مكان ومؤسسة، في كل لقاء أو مقابلة. ليس غريبًا أن تصدر كلمات الرئيس الأمريكي ترامب ممزوجة بعرق العنصرية، حين يتناول الحديث عن الأفارقة أو المسلمين أو الفقراء السمر؛ ذلك أنه يحمل جينات الرجل الأبيض المغرور.

نعم، عرفت الرجل الأبيض وملامح شخصيته الحادة في أوروبا، ولكن في أمريكا الأمر يفوق التصور. إن كبره يزداد أكثر لكونه أمريكيًا، ولعل عامل القوة يزيد في الهوة، وحين أتحدث عن الرجل الأبيض فأنا لا أتحدث عن بياض البشرة، بل بياض الحقيقة في أن عقليته لا تؤمن إلا بسيادة صاحبها على من حوله من بشر لا زال يعتبرهم أدنى! لزرقة عينيه أو لشُقرة شعره، أو ربما للكنته الإنجليزية. وإن أردنا وصفه بإنصاف، فالرجل الأبيض -وعلى مدار التاريخ- كان الأكثر ظلمًا وتعديًا واستعبادًا للشعوب؛ فمظالمه تضج بها رفوف المكتبات وصفحات المؤلفات.

تصنيف حق

وفي الوقت الذي يجب علينا كأهل عقيدة استعلاء بالإيمان أن نوجه أجيالًا تتربى على التخلص من هيمنة ونفوذ هذا الرجل الأبيض واحتقاره لبشاعة وظلام أفعاله، ونبذه لعدوانه وجشعه، وجدنا أجيالًا من أبنائنا قد تربت على تمجيد هذا الرجل وتعظيمه، ومنهم من ينحني إجلالًا لغطرسته وصلفه.

فعلمنا أن المسألة فكرية عقدية لا سياسية ولا اقتصادية ولا عسكرية ولا دهائية، وللأسف بدل أن يحظى الرجل الأبيض المستعمر القذر بالاحتقار، حظي بالإعجاب والقداسة، مع أن سياسته في الإهانة لكرامتنا والمساس بمقدساتنا آخذة في التمادي، يستغلنا ويستغل أوطاننا استغلالًا شنيعًا، ونشاهد كل هذا ولا نبالي.

أوليس هذا كافيًا لأن نُعبِّئ أعصابنا ومشاعرنا ضده لنسترد حقوقنا المسلوبة؟ لقد صدق سيد قطب حين وصف تمجيدنا للأوروبي والأمريكي جناية إنسانية؛ لأننا بتمجيدنا لهؤلاء إنما نمجد مثالًا مشوهًا للإنسان، ونقيم تمثالًا للجشع والطمع والسلب والنهب والاحتيال. ثم نضع تحت أقدامه أكاليل المدح والثناء!

وعندما تجد المستغفل يمجد بريطانيا ويعتبرها بلاد الرقي والحضارة، وهي الإمبراطورية التي لم تغب عن أرضها الشمس يومًا، ليس لعدالتها بل لسعة مستعمراتها التي نالت فيها الشعوب المسلمة ما نالهم من اضطهاد وقمع وعدوان واغتصاب. ثم يأتي آخر احتلت بلاده من فرنسا سنوات مديدة وعقودًا عصيبة وأكثر من قرن من الزمان، ثم يردد إن فرنسا هي التي علمت الدنيا مبادئ الحرية والإخاء والمساواة!

ثم يأتي منهزم آخر يمجد أمريكا مفتخرًا بديمقراطيتها المزعومة وينادي بها ويتقمص دور دعاتها، وبلاد المسلمين تئن من تدخلاتها وعدوان جيوشها حتى كلّت صفحات التاريخ من تسجيل أرقام جرائمها وفظائعها. بهذه العقليات كيف يمكننا أن نعتبر أنفسنا متحررين من قيود الاستعمار؟ كيف ندعي الاستقلال وأغلال الاستعمار الروحي تقيد مشاعرنا حتى ونحن ثائرون على الاستعمار العسكري أو السياسي أو الاقتصادي؟

حقائق ثابتة

لن نختلف أبدًا في أن تاريخ أوروبا الذي سطره الرجل الأبيض كان أسود، ولا أن تاريخ أمريكا الذي خطه الرجل الأبيض كان مقززًا، ولن نختلف أن من بقي يمجد أصحاب هذه الصفحات الملطخة بالدماء المسلمة، إنما هو خائن لأمانة دينه وأمته، بل ولأمانة إنسانيته إن كان بحق إنسانًا. حقيقة، إنني لأحتقر كل كاتب وكل إعلامي وكل محسوب على الإسلام معجب يفتخر بأمريكا وصنائعها ويمجدها بقداسة مذلة.

إنه الهوان البشع، الذي لا يقدم عليه فرد وله كرامة، ولا بد لنا -كأمة مسلمة- أن نقصي هؤلاء الذين غمسوا أقلامهم ليمجدوا أمريكا؛ لأنهم منخوبو الروح، مستعمرو القلوب، لا يؤتمنون على نهضة ولا على تراث أمة.

ترامب نموذجًا

في الوقت الذي لقي فيه انتخاب الرئيس الأمريكي دونالد ترامب الكثير من الجدل والمعارضة والانتقاد، كانت العقلية الأمريكية للرجل الأبيض تتجلى بجميع ملامحها العنصرية على تصرفات وردود الرئيس الجديد، ولا عجب أن يلقى قبولًا في أوساط الأمريكان البيض مثله الذين ينظرون للناس من فوق برج عاجيّ يزدرون الألوان ويستعلون على الأجناس، وكأنهم ملوك على الأرض، الصلافة الترامبية اتجاه المسلمين خاصة، وبقية الشعوب عامة، لم تخرج إلا من رحم صلافة الأمريكان، وكذا قلة أدبه وحماقاته لم تخرج عن صفات الشعب الأمريكي المستكبر.

انتقادات صحفية متتالية

لم تخلُ صفحة إعلامية من نقد ومتابعة لأخبار ترامب، في صفحات الإعلام عبر العالم، بل حتى المهرجانات والاحتفالات الساخرة منها والمبتهجة، كانت تعرض صور الرئيس الأمريكي بطريقة كاريكاتور مثير للسخرية صفته العناد والحمق في آن واحد. ولكن يبدو أن الرئيس الأمريكي مولع بشهرته وإن كانت سيئة، وباهتمام العدسات به والأقلام وإن كان ناقدًا.

وربما هذا ما يفسر ولعه بالظهور والتعليق بتمادٍ وصراحة مباشرة على حسابه على موقع تويتر للتواصل؛ ذلك أنه لا يبالي بحجم الفزع والصدمة التي تحدثها صراحته العنصرية في صفوف الجماهير، بل يبالي بغرس مفهوم أن أمريكا أولًا، وأن الرجل الأمريكي هو الأولى أولًا.

استكبار حتى على الأوروبيين

ولا زلت أذكر تعليق ذلك الصحفي الفرنسي الذي خلص بعد تعليق على الطريقة التي يتعامل بها ترامب مع الأوروبيين إلى أن شعار الرئيس الأمريكي (أمريكا أولًا) سينتهي به في الواقع إلى (أمريكا وحدها)، في إشارة إلى العقلية المستكبرة حتى بحق الحلفاء الأوروبيين.

ولقد لقيت تصريحات ترامب خلال قمة حلف الناتو وقمة مجموعة السبع كمًا كبيرًا من الانتقادات للقيادة الأمريكية الجديدة، وعلقت عليها صحيفة «الإندبندنت» البريطانية قائلة: "إن تصرفات و«حماقات» الرئيس الأمريكي دونالد ترامب خلال قمة حلف الناتو وقمة مجموعة السبع أنهت التحالف بين أوروبا والولايات المتحدة، وهو ما يخدم مخططات روسيا التوسعية."

لم يُخفِ ترامب انتقاصه للألمان، ولا انتقاده للدول الـ٢٨ الأعضاء في الناتو؛ ولعل هذا ما دفع بالمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل للتصريح أن اعتماد أوروبا على الولايات المتحدة انتهى، ولا بد أن تحمل أوروبا مصيرها بيدها. ولم تقف ردود ترامب عند التصريحات اللاذعة، بل تعدت إلى ضربات اليد الماكرة؛ فقد انتقدت تصرفه شبكة «سي بي إس» الأمريكية حين قام ترامب بـ«حركة عدوانية»، ودفع رئيس وزراء الجبل الأسود باليد ليظهر هو في المقدمة، فظاظة ترامب ومخالفته للساسة الحلفاء بدت ظاهرة حول روسيا والاحترار المناخي والتبادل الحر، وفي كل مناسبة. إنه الرجل الأبيض الأمريكي الذي يريد أن يكون قبل الكل.

سيرة ترامب

صحيح أن سيرة ترامب تعكس حقيقة افتقاده للخبرة السياسية والعسكرية، ما دفع بالبعض لتبرير سلاطة لسانه بسبب هذا الافتقاد، إلا أنني في الحقيقة لا أرى في ترامب إلا سليل أجداده البيض الذين كان لهم نصيب في الاستعباد، فاعتز بميراثهم.

ورجل الأعمال وتاجر العقارات (الميلياردير) الذي ولد في ١٩٤٦ ترجع أصوله لألمانيا من ناحية والده. أما من ناحية أمه فيرجع لجزيرة ليوس شمال اسكتلندا، فهو سليل مهاجرين استوطنوا، أو بشكل أدق، استعمروا أرض أمريكا.

أتم دراسته في جامعة بنسلفينيا في كلية وارتون المالية، وقد سيطر ترامب على شركة والده الذي كان يعتبره قدوة، وبرع في تجارة العقارات ومشاريع البناء في نيويورك؛ ليتألق نجم الابن المدير، ويتمكن من إدارة تامة للشركة في عام ١٩٧١، والتي أطلق عليها اسم منظمة ترامب (ترامب أورغانيزايشن).

شق ترامب طريقه في بناء ناطحات السحاب، كناطحة سحاب مانهاتن المألفة من ٦٨ طابقًا، والبنايات الكبرى والفنادق الفخمة ونوادي القمار وسلسلة متاجر ترامب الشهيرة؛ بسبب ولعه بعالم الأرقام والحسابات والأموال.

ومع ذلك، لم يقف طموح ترامب عند إدارة الأعمال والعقارات، بل اتجه نحو برامج الترفيه التلفزيوني، أين اشتهر ببرنامج «أبرانتيس» أي (المتدرب) على شبكة أن بي سي (NBC)، التي كان يملك حصة فيها، وبرنامج مسابقة «ملكة جمال الكون» ومسابقة «ملكة جمال فتيات أمريكا». تزوج ترامب ثلاث مرات: كانت الأولى بالعداءة وعارضة الأزياء التشيكية إيفانا تزيلينيكوفا، وولد منها دونالد الأصغر وإيفانكا وإريك. ووقع بينهما الطلاق في عام ١٩٩٠.

ثم تزوج ترامب بالممثلة السينمائية مارلا مابليس عام ١٩٩٣، وأنجبت له تيفاني قبل شهرين من زواجهما، لكن زواجهما انتهى بالطلاق في عام ١٩٩٩. وتزوج بعدها من عارضة الأزياء السلوفينية ميلانيا كونس التي لا زالت زوجته، وأنجب منها ولدًا اسمه بارون ويليام.

ويجدر الإشارة إلى أن ترامب لا يدخن ولا يشرب الكحول؛ كون الأخير كان السبب في موت شقيقه الأكبر في الأربعينيات من عمره، فخشي أن يصيبه نفس المآل. وقد تلقى الرئيس الخامس والأربعون للولايات المتحدة الأمريكية الكثير من الانتقادات بسبب أسلوب حياته الباهظة، وعنصريته اتجاه المهاجرين المسلمين والوافدين من بلدان إفريقية وصفها بالقذرة، في وقت رحب بالوافدين من دول

مثل النرويج. وهو نفسه الرئيس الذي وجهت له عدة اتهامات بسوء سلوك جنسي، وكان عضوًا نشطًا في حركة «بيرثر» التي تشكك في مسقط رأس الرئيس أوباما؛ لا شك بدوافع عنصرية.

عنصريته لم تعزله

ومع ذلك كله، لم يعزل ترامب؛ لأن أمثاله ممن يؤمنون بما يصرح به يعدون بالملايين في أمريكا، ورغم تعليقات الصحافة الناقدة له واتهامه بقلة الكفاءة، كما علقت عنه صحيفة الواشنطن بوست الامريكية قائلة: "السيد ترامب كشف، كما لم يفعل من قبل أبدًا، عن أنه رجل غير صالح للقيادة."، وعلى نهجها علقت كبريات الصحف الأمريكية. إلا أنه لم يُعزل ولم يُقَل من منصبه، بل لا زال يحظى بشعبية لا يستهان بها بين أوساط البيض من أمثاله ممن يحملون ذات العنصرية وذات الاستكبار.

ومن المثير للسخرية تعليق الصحف والتقارير حول نقص شعبية ترامب عما سبق، في حين لا زال يحظى بدعم قرابة نصف الأمة الأمريكية؛ ذلك أن نقصان شعبيته قليلًا لا ينفي حقيقة تقبله من قبل شعبه.

نعم لا زال ترامب رغم صفاقته يشغل اهتمام العدسات والمراسلين ويجذب الإعلام بشكل صارخ، وفي كل مرة يخرج لنا بفضيحة أو عجيبة، وألفت فيه الكتب والمقالات! كان أكثرها زوبعة كتاب مايكل وولف بعنوان «نار وغضب ... داخل بيت ترامب الأبيض»، والذي جمع كل حقيقة وكذب بحق الرجل الأبيض المنتخب، أو اللا منتخب.

واجبنا نحن

لكن ما يهمنا نحن من هذا كله هو أن بشاعة هذا الرئيس ووقاحته كشفت لنا حقيقة أن الرجل الأمريكي لم يختلف عن الرجل الأبيض في عصر الاستعباد العنصري، وأنه لا زال يحمل ذات الدوافع للهيمنة على العالم، ونفس الأهداف لاستعباد الشعوب، وإن تغيرت وسائله أو تطورت أساليبه! لا زال محتلًا غاصبًا، معتديًا قاتلًا، وقد شاهدنا الرجل الأمريكي يدوس بأقدامه على أعناقنا في كل مكان، ولكن ما يفت الفؤاد ويزيد الحلق مرارة هو أنه مع هذا الظلم لا زال يجد من بني جلدتنا من يمجده، فهل يحمل أمثال هؤلاء ذرة آدمية؟

نعم، حق لنا أن نعجب ممن لا يحتقر أمريكا ويحقر معها آدمية الأمريكان وهو يجد المعدات الأمريكية والدولارات الأمريكية والأقدام الأمريكية تشق عنان الديار المسلمة وتسطر فيها من الجرائم ما بلغ أقصى البشاعة، بل أضعافها.

وحق لنا أن نأسف حين نرى أن تشخيص حالنا لا زال كما وصفه سيد قطب يومًا في أن الاستعمار لا يغلبنا اليوم بالحديد والنار، ولكنه يغلبنا قبل كل شيء بالرجال الذين استعمِرت أرواحهم وأفكارهم، يغلبنا بهذا السوس الذي تركه الاستعمار في وزارة المعارف، وفي الصحف، والكتب. يغلبنا بهذه الأقلام التي تغمس في مداد الذل والهوان الروحي لتكتب عن أمجاد فرنسا، وأمجاد بريطانيا، وأمجاد أمريكا.

ويوم ننقض الاستعمار على هذا النحو من أرواحنا وعقولنا، يوم تغلي دماؤنا بالحقد المقدس على كل ما هو أوربي أو أمريكي، يوم نسحق تحت أقدامنا كل من يربطنا بعجلة الاستعمار، عندئذ فقط سننال استقلالنا كاملًا؛ لأننا نلنا الاستقلال من داخلنا: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). (سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلًا).

فهل آن الأوان أن نمزق صفحات الإعجاب بأمريكا؟ أما آن الأوان أن نعترف بأن ترامب ليس إلا مثالًا صريحًا لاستكبار الأمريكان منذ الأزل؟ أما آن الأوان أن ننظر في أنفسنا فنتحرر من كل هيمنة أو انقياد أو انسياب مع السياسة الأمريكية الاستعمارية التي يقودها الرجل الأبيض الأمريكي وتتربص بنا دوائر السوء؟ إن لم نفعل، فليس لنا الحق أن نطالب بنصر ولا بعز ولا بحرية! وبطن الأرض لن يكون خيرًا لنا من ظهرها، ذلك أن الحساب سيكون عسيرًا.

الولايات المتحدة والنظام الدولي

تهيمن أمريكا على النظام العالمي منذ عقود طويلة، ولا شك أن هذه الهيمنة كلفت الشعوب المسلمة الثمن الباهظ، سواء من خلال ما تكبدته من حروب وصراع وأزمات، أو لما تملكه من أهمية وثروات تجعل منها دائمًا في مرمى أهداف الأمريكان.

ثم هذا النظام الظالم قد قام على أعقاب الحرب العالمية الثانية ليعطي الحق للأقوى في فرض نفسه على الجميع، وفرض سياساته -وإن كانت جائرة ومستبدة- بما يوائم مصالحه الخاصة. وبعد أن تمكنت أمريكا من إزاحة القطب الثاني المنافس لها «الاتحاد السوفيتي»، تفردت بقيادة هذا العالم، فزادها ذلك كبرًا وغرورًا، بل وجشعًا، خاصة وأن حجم الرَدة العالمية التي ترفض الهيمنة الأمريكية كانت دون المستوى، أو ربما لم تتحقق أبدًا.

وحين نتأمل عبارة فرانكلين روزفلت عقب ضرب الأسطول الأمريكي في بيرل هاربور في ديسمبر ١٩٤١، حيث قال: «في هذه المرة سنكسب الحرب وسنكسب السلام الذي يتلوها»، نجد أن معنى السلام بحسب مفهوم روزفلت يعني أن تقود أمريكا العالم من خلال نظام عالمي جديد، تضمن من خلاله الاستقرار على يدها، والذي بدوره لا يخرج عن معنى الهيمنة الأمريكية.

وفعلًا بعد هذه الحقبة، ظهر النظام الدولي الجديد المعتمد على ثلاثة عناصر: القواعد التي تنظم العلاقات الدولية، والدول والمنظمات، والتفاعلات بين أجزاء النظام الدولي. فحين تولى تيودور روزفلت رئاسة أمريكا أشار إلى «الزيادة في درجة الاعتماد المتبادل والتعقيد في العلاقات الدولية والعلاقات الاقتصادية»، بحيث أصبح من الصعب على أية دولة أن تعيش بمعزل عن غيرها من الدول.

روزفلت هو نفسه الذي دعا إلى الإعداد لنظام ما بعد الحرب، وكان مشروعه هو إنشاء الأمم المتحدة للقوى الكبرى، وظهر حق الفيتو الذي يجعل قرار بعض الدول فوق قرار جميع الدول الأعضاء، وإن اتفقوا بالغالبية. فكانت هذه الدول صاحبة الفيتو كالبوليس، أو بشكل أدق كالبلطجي الدولي. واستمر هذا حال العالم بعد الحرب الباردة. ولكن في رئاسة جورج بوش ظهر نمط جديد من النظام، يطالب بالتدخل الدولي في الأزمات الدولية، كما فعل بوش في حرب الكويت وأفغانستان، وكما فعل بيل كلنتون في حرب الصومال. حيث توقفت أمريكا عن التدخل بمفردها في الصراعات، وبدل ذلك عمدت إلى تجيش حلفائها لإقحامها في هذه الصراعات، وبدأت الأمم المتحدة أيضًا تنفذ أجندات أمريكا، وبدأنا نشاهد ما يسمى قوات حفظ السلام والتوجهات نحو العولمة. وبدأ عصر جديد من التلبيس والتمويه والخداع والتحايل والاستعمار المقنن لم تعرفه الأرض من قبل.

ولا شــك أن اعتمـاد أمريكـا على مؤســســات ومنظمـات، مثـل البنك الدولي وصــندوق النقد الدولي والتحالفات العسـكرية، سـمح بتوحيد مصـالح ومصير الدول الغربية وامتصـاص خلافاتها، وعلى الأقل كسب أوروبا في صف أمريكا. في حين ساعدت هذه المؤسسات والمنظمات في بسط الهيمنة الأمريكية على بقية الدول بحسـب طبقتها. ولهذا نجد بعض البحوث والدراسـات تتحدث عن هيمنة غربية، ليست أمريكية فقط، لأنهم يرون النفوذ الأمريكي لم يكن بدون كسـب أمريكا للنفوذ الغربي، فتشـكلت بذلك - وبدافع المصالح المشتركة والسياسات المتفقة- كتلة المعسكر الغربي.

الشرعية الدولية

ولعل الطامة الكبرى في هذا النظام، هي تلك "الشرعية الدولية" التي فرضها الأمريكان والأمم المتحدة، وفرضت على العالم الإسلامي فرضًا كأنها تشريع إلهي، وهكذا أصبحت هذه الشرعية الدولية، والتي هي تنفيذ لميثاق الأمم المتحدة، أعلى مراتب المعاهدات الدولية وأعظم قواعد القانون الدولي. ونجد المادة ١٠٣ لهذا الميثاق تنص على أنه: "إذا تعارضــت الالتزامات التي يرتبط بها أعضــاء الأمم المتحدة، وفقًا لأحكـام هـذا الميثـاق، مع أي التزام دولي يرتبطون بـه، فـالعبرة بـالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق"، فهي شرعية لا تعترف بتشريع آخر غير هذا التشريع البشري الناقص، وإن كانت شريعة الإسلام الإلهية.

الطبقية في النظام الدولي

ولو أردنـا وصــف النظـام الدولي القائم اليوم، ســنجد أمريكا تتربع على عرش الحاكم أو القائد للنظام الدولي، لديها صـلاحيات ونفوذ في غالب الأوقات والأماكن. وقد تتحرك دولة قوية أخرى أقل نفوذًا من أمريكا توصف بالشريك، لأجل تحقيق مكاسب أو مصالح ما، بشرط عدم الإخلال بتوازن القوى الإقليمي أو الدولي الذي تحكمه أمريكا، وهذه حال إسـرائيل مثلًا، أو الصـين أو روسـيا، ولكنها دول مصـنفة في طبقة الشريك.

بعض الدول يحق لها أن تطالب بحقوق معينة أو مكاسـب كونها في وضـع الحليف، ولكن لا تستطيع أن تتحرك دون إذن مسبق أو تنسيق مع أمريكا. مثل المجموعة الأوروبية، كألمانيا وفرنسا وإنجلترا، ومثل كنـدا والهنـد وغيرهـا. وهـذه الـدول انخرطت طوعًا أو كرهًا في الحرب على التنظيمات الجهادية تحت قيادة أمريكا. فضـلًا عن تسـخير قوتها وسـياسـاتها في مواجهة المخاوف من تنامي قوة ونفوذ روسـيا، دائمًا تحت قيادة أمريكا المتحكمة في حلف الناتو وغيره من قوى تحالفية.

وفي ظل هذه السلطة الغالبة، هناك دول تصنف في طبقة الأتباع، لا تتمتع بأي حرية ولا تستطيع تحصيل أي مكاسب أو مصالح إلا في حدود ما تسمح به أمريكا لها، وكل شئونها تخضع مباشرة للحكم الأمريكي. وهذا حال جميع الدول العربية وأغلب الدول الإفريقية وكذا دول أمريكا الجنوبية. وحتى إن وجد تأثير لدول أخرى على هذه الدول إلا أنه تأثير لا يصل لمستوى التأثير الأمريكي المهيمن.

لا يعني هذا أن النظام الدولي الحالي يُخضِع جميع الدول بحسب الطبقية التي فرضها الأمريكان، فهناك دول تمثل نموذج الدول المتمردة، وهي أفغانستان وكوريا الشمالية. ولهذا تعرف الأولى حربًا مستمرة في سبيل إخضاعها، في حين تتلقى الثانية العروض السياسية المغرية تارة والتهديدات المبطنة تارة أخرى لضمها من جديد للنظام الدولي الحالي.

هذا دون أن ننسى تلك الدول التي تتميز بقدرٍ كبيرٍ من الاستقلالية مثل إيران أو كوبا، وربما يتعلق هذا الاستقلال أكثر بطبيعة نظام الحكم والطبقة الحاكمة في مثل هذه الدول، ولا يعني أن تكون الدول في طبقة واحدة أنها في نفس قوة التأثير؛ بل التباين في القوى يكون في داخل الطبقة الواحدة، كما قد تكون بعض الدول في مرحلة وسيطة بين الحليف والشريك، أو بين التابع والحليف.

كيف تمكنت أمريكا من الهيمنة على العالم؟

لقد بسطت أمريكا هيمنتها على العالم بفضل أذرعها المتخصصة، سواء في الميدان العسكري أو الاقتصادي أو الأمني أو الفكري أو الإعلامي.

وقد دفع سجل الحروب الثقيل للأمريكان، والذي خرج بذات النتائج التي خرج بها المستعمر الأوروبي المنهزم، دفع أمريكا إلى تغيير استراتيجيتها في الهيمنة العسكرية، وبدل أن تقحم نفسها في خوض حروب بذاتها، والتورط في احتلال مباشر، عمدت إلا حل الاحتلال غير المباشر، والذي يوفر عليها الكثير من الخسائر البشرية والمادية، وهذا يعني توظيف القوى المحلية والمرتزقة المأجورين وتوريط المجتمع الدولي في أي صراع تخوضه تحت شعار (إما معنا أو ضدنا).

ثم حتى تضمن أمريكا هذه الهيمنة العسكرية، عمدت للتحكم في سوق السلاح والجهات التي يحق لها امتلاكه والتعامل به، فالسلاح لا يقع إلا في يد مرتزقتها، والجيوش التي تعمل تحت إمرتها. أما دون ذلك من الشعوب، فهذه تحرم من فرص التسلح وإن كانت مظلومة أو صاحبة حق في امتلاكه، وإن حصل وامتلكته من مصادر أخرى حوربت واتهمت «بالإرهاب»! وفي المقابل تسلح أمريكا حكومات أو أنظمة هذه الشعوب التسليح المدروس، ورغم ذلك فهي لا تُقْدِم على مثل هذه الخطوة الخطيرة إلا بعد

أن تكون قد ملكت زمام القيادة لهذه الأنظمة، وطوعتها بالبعثات العسكرية والتدريبات المشتركة والدعم العسكري بما يتوافق مع دور هذه الدولة لأجل مصلحة حفظ توازن القوى.

وهذه الجيوش التي نراها تقمع الثورات وتحفظ مصالح اليهود والأمريكان والدول الغربية، وتحرص على استمرار نهبهم لثروات البلاد المسلمة، وتحمي ممراتهم المائية وطرق تجارتهم، قد تصل إلى درجة القتال بالنيابة عن الأمريكان، هي جيوش تحمل ولاءها الأول للأمريكان. وحتى تضمن أمريكا استمرار هذا الولاء، فهي تحرص على نشر شبكتها الاستخباراتية المراقبة لكل تحركات هؤلاء العملاء، ثم توزيع قواعدها العسكرية برًا وبحرًا وجوًا في كل الأماكن الحساسة والمهمة في العالم. وهكذا تُؤَمِّن أمريكا عملياتها السريعة والطارئة التي تعجز القوات الموالية لها في تحقيقها، ونجدها تتدخل في اللحظة الحاسمة حين يعجز وكلاؤها وعملاؤها في أداء وظيفتهم.

ولأن أمريكا تقدر الأحجام المتباينة لمنافسيها، فقد عمدت إلى نشر السلاح النووي الأمريكي في مناطق أوروبا وآسيا، كتهديد واضح لكل دولة، وخاصة تلك التي تنافسها في اقتناء الترسانة النووية، مثل روسيا والصين وكوريا الشمالية، فيتنبه الجميع أن هناك ماردًا في المنطقة يهيمن على الأرض.

ثم إن القوة العسكرية لن تكون فعالة بدون إتقان فن التحالفات العسكرية الإقليمية، ولهذا نجد أمريكا قد تحالفت مع الدول الغربية في حلف الناتو، وتحرص على التحالفات الاستراتيجية بما يضمن ربط هذه القوى بمواثيق سلام دائم تضمن عدم تمردها أو محاولة منافستها لأمريكا عسكريًا، بل وتوريطها لصالح قوة أمريكا ومجدها. ثم أيضًا لتتمكن من إحكام سيطرتها على بقية الأطراف الأقل قوة، ويدفع بهذا الجميع فواتير الهيمنة الغربية طوعًا أو كرهًا.

وحين نتأمل ميزانية الدفاع في أمريكا، والتي تصل إلى ٦١٦ مليار دولار، سنعلم كم من الاهتمام توليه هذه الدولة المهيمنة للميدان العسكري، ثم ذلك اللغط الذي تثيره كواليس الإدارة الأمريكية في كل مرة تخصص فيه ميزانية الدفاع يؤكد أن هناك أطرافًا في الحكومة الأمريكية تسعى لتغليب مصلحة الميدان العسكري قبل أي ميدان آخر، وإن كان اقتصاد البلاد هشًا.

ولا تكفي الأموال لدعم قوى الدفاع الأمريكية، بل تحتاج لضخ الأرواح التي تسهر على تحقيق الحلم الأمريكي "أمريكا أولًا" تغذيها قومية عصبية، بغض النظر عن الجذور الأصلية للمجندين. فالمهم أولًا وأخيرًا هو الولاء لأمريكا. ولا عجب أن يصل عدد القوات العاملة في الجيش الأمريكي إلى ١٤٠٠٠٠ فرد، في حين وصل عدد قوات الاحتياط حوالي ٨٥٠٠٠ فرد. هذا دون إحصاء لقوى القيادة الاستراتيجية وقيادة القوات الخاصة، فالأولى تتولى مسئولية السلاح النووي والإنذار المبكر والدفاع ضد الصواريخ،

ومسـئولية الأقمار الصـناعية والشـئون السـيبرانية (الإلكترونية) وعمليات الاسـتخبارات العسـكرية والاستطلاع وعمليات القذف الاستراتيجي بعيد المدى. أما الثانية، فتقوم بقيادة القوات الخاصة لجميع الأفرع، والتي منها القوات الخاصـة التابعة للجيش والبحرية والقوات الجوية ومشـاة البحرية ويبلغ مجموع تعدادها كلها حوالي ٦٣ ألف فرد.

ويسـند هذا التنظيم وهذا التفوق العسـكري، تفوق الأسـلحة الأمريكية المتقدمة والمتطورة على طول محور التطور العـالمي التكنولوجي المتفوق. فـالـدولـة المهيمنـة التي تمنع امتلاك أي دولـة أخرى قوة نووية، وتتصـارع مع كوريا الشـمالية بسـبب عصـيانها لهذه الأوامر، تمتلك لوحدها حوالي ٦٨٠٠ قنبلة ورأس نووي، والتي تسـتطيع إطلاقها عبر الغواصـات النوويـة والقاذفات بعيدة المدى والصـواريخ البـاليسـتية المتقدمة التي يزيد مداها عن ١٣ ألف كم، وارتفاع طيرانها عن ١١٠٠ كم، ودقتها تصـل إلى ٢٠٠م.

هذا فضلًا عن ترسانتها من حاملات الطائرات المسيرة بالطاقة النووية، والتي يصل عددها إلى ١١ حاملة طائرات نووية في الخدمة، يحمي هذا كله أقوى وأحدث أسـطول جوي في العالم بحوالي أكثر من ١٣ ألف طـائرة متعـددة، منها حوالي ٥٠٠٠ طائرة مقاتلة ومتعددة المهام. فضـلًا عن أكبر وأحدث أسـطول حربي في العالم، يشـمل غواصـات مسـيرة بالطاقة النووية وطرادات ومدمرات وفرقاطات وغيرها من أشكال السفن الحربية.

قوة هائلة لكنها عاجزة أمام حرب الإرهاب

بمثل هذه القوة الضـخمة، تنشـغل أمريكا بحرب شاملة على ما يسمى الإرهاب في ٧٦ دولة، أو ما نسبته ٣٩% من دول العالم، ولكنها تبدو الحرب الأطول في حياتها والأكثر اسـتنزافًا، والتي لم تظهر بعد بوادر جلية لنهاية حاسمة لها.

ولا يخلو تصـريح أو خطاب دولي من ذكر "حرب الإرهاب"، بل إن الاجتماعات والمؤتمرات والتحالفات باتت كلها تعقد وتفعّل في سبيل الحرب على "الإرهاب"؛ كل هذا بأوامر أمريكية. واختلف المراقبون في تفسـير هذه الحرب العالمية الجديدة، بين متهم الأمريكان بخلق الإرهاب لتحقيق مصـالحهم في الشرق الأوسـط والعـالم عمومًـا، وبين متهم الأمريكـان بـالعجز في مكافحة الإرهاب ومحاولة إقحام المجتمع الدولي في حربهم التي أطلقوها بحماقة منذ أول إعلان للحرب على أفغانستان والعراق.

ولعل هذه الحقائق حول القوة العسكرية الأمريكية تساعد في قياس نفوذ الدولة المهيمنة المحاربة «أمريكا»، مع أن الأحداث العملية فقط، وليست التصريحات الإعلامية أو الدعايات السياسية والادعاءات الشخصية، هي التي تقيس جدوى هذا النفوذ في بعض أنواع الصراع. وهذا ما أثبته صراع أمريكا مع أفغانستان أين لم تحسم القوة العسكرية الحرب الدائرة هناك، رغم كل الضخ والاستنزاف الذي تكبدته القوات الأمريكية وقوات حلف الناتو.

وحين نبحث في تعريف الإرهاب، لا نجد تعريفًا دقيقًا لهذه الحرب. ولكن ما نستخلصه من التصريحات اليومية للساسة الأمريكان، فإنها حرب بين أمريكا ومن حالفها وبين المنظمات الإسلامية التي صنفت إرهابية، وتمتد جذور هذا الصراع بين أمريكا وهذه المنظمات، ولم نَقُل دولًا، لتاريخ أول ظهور للهيمنة الأمريكية في العالم الإسلامي، ولم تكن ولادة هذه المنظمات إلا نتاجًا منطقيًا لتمادي الأمريكان في هيمنتها على العالم الإسلامي، وتفانيها في قلب ميزان القوى بشكل واضح لصالح إسرائيل. فنجحت في تطويع الأنظمة العربية ووأد أي فرصة لمقاومة نظامية، فولَّد هذا القمع والترويض حركات وأنماط مقاومة لا نظامية، تفسر ولو جزئيًا بروز الظاهرة الجهادية في العالم الإسلامي.

وهذا أيضًا ما يفسر استمرار رحى الصراع بين القطبين؛ الأمريكي من جهة، والمنظمات الجهادية من جهة أخرى، كون أمريكا لا زالت تغذي أسباب هذا الصراع باستمرارها في الهيمنة على العالم الإسلامي ودعم إسرائيل بلا حدود، بل واستثارة الشعوب المسلمة بإهانتها وإهانة مقدساتها، كما فعلت مؤخرًا في تقديم موعد تحويل سفارتها من تل أبيب إلى القدس إمعانًا في إذلال الشعوب المسلمة بعد إعلانها القدس الشريف عاصمة لدولة بني صهيون. وربما لأن جس النبض أكد أن هذه الشعوب باتت محبطة بشكل يسمح للاحتلال الإسرائيلي بالتمادي أكثر وكسب نقاط أفضل.

هيمنة أخطبوطية لكن تفاوت في القدرات

نعم، فهيمنة الأمريكان لا تعتمد القوة العسكرية فحسب، بل توازيها أذرعها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإعلامية والثقافية، وغيرها من الأذرع التي تعمل كلها في سبيل إدامة عمر هذه الهيمنة، وتقوية نفوذ هذه الدولة.

لقد نجحت أمريكا في التربع على عرش النفوذ العالم عمرًا مديدًا، ولكن مؤخرًا بات الاقتصاد الأمريكي يعاني مع ازدياد المخاوف من أزمات كبرى تعصف به، وبدأت رؤوس أخرى تطل منافسة لها بقوة كالصين، ولعل هذا ما جعل المراقبين يتنبؤون بقرب زوال مرحلة الهيمنة القطبية الوحيدة لأمريكا؛ ذلك أن الدول الكبرى التي تقف في رأس الهرم (أمريكا والاتحاد الأوروبي واليابان والصين وروسيا) لا تتميز

الواحدة فيها بتفوق في جميع الميادين؛ فحتى أمريكا التي تفوقت في الغالب، لا يخفى ضعفها في الميدان الاقتصادي الذي أضحى مشكلة كبيرة تهدد تقدمها، وبدت بوادر هذا الضعف تتجلى على قوتها العسكرية وسياساتها في الهيمنة. في حين أن الاتحاد الأوروبي الذي تفوق اقتصاديًا يعاني من ضعف في الميدان العسكري، وحتى السياسي، كما تجلى ذلك في عجزه عن حسم أزمات البلقان المختلفة حتى تدخلت أمريكا. وما ينطبق على الاتحاد الأوروبي ينطبق على الصين التي تتفوق اقتصاديًا، لكن قوتها العسكرية لا تنافس بقوة أمريكا، وكذلك روسيا كقوة عسكرية وضعف اقتصادي.

هذا التشخيص الحقيقي لحالة معسكر الغرب وإن بدى متماسكًا، يؤكد أنه معسكر قد أصابته هشاشة، وبدأ يعاني من تراجع مستمر لقوته في ميدان ما أو أكثر؛ ما ينبأ بتزايد فرص التغير في موازين القوى العالمية، ويوحي بإمكانية رسم نظام عالمي جديد ينهي الهيمنة الأمريكية على النظام العالمي في نهاية المطاف بصعود قوى وسقوط أخرى.

وفي حين تؤكد الدراسات التي تناولت هذه التغيرات في هيكل النظام الدولي أن حالة فقدان القوة والميل نحو الضعف باتت مرشحة للزيادة في الأعوام القادمة، وستكون عواقبها انحسار النفوذ الأمريكي في بعض المناطق، وملء هذا الفراغ بواسطة قوى أخرى، دولية كانت أو جهادية. وتقترح دراسات أخرى أن التعددية القطبية ستكون تركيبة النظام العالمي الجديد.

ولأن التغيرات الجذرية للنظام الدولي لا تأتي إلا بعد حروب عظمى دولية، كما تسببت الحرب العالمية الأولى في زوال أربع إمبراطوريات كبيرة، أبرزها الإمبراطورية العثمانية، والنمساوية المجرية، والإمبراطورية الروسية، فإن نشوب حرب عالمية في الوقت الراهن أمر مستبعد ما لم تتوفر العوامل والأحداث الكبرى وعلى نطاق دولي شامل كالتي سبقت الحربين العالميتين، أو مهدت لانهيار الاتحاد السوفيتي. لكن المؤكد أن بوادر ظهور انحسار النفوذ الأمريكي بدأت تتجلى بشكل صارخ في الشام على سبيل المثال، وذلك بالسماح للنفوذ الروسي بالهيمنة. وإن كان هناك تواجد مستمر للأمريكان في الساحة السورية، وأن سيطرتهم وصلت لـ٣٠% من أراضي سوريا، إلا أن القيصر الروسي لا يبدي أي تنازل تجاه المصالح الأمريكية، بل سُجلت مؤخرًا مناوشات وتراشقات تنبأ باحتمالية تصاعد الخلاف بين الدولتين الكبريتين في نظام عالمي أثبت فشله في إقرار الأمن والسلام في العالم.

النظام العالمي في عصر ترامب

منذ تولى دونالد ترامب، الملياردير الأمريكي، منصب رئيس لأمريكا، وتتوالى الانتقادات على السياسة الأمريكية في العالم، وخاصة من قبل الحلفاء الأوربيين. فصلافة الرجل أحرجت الخارجية الأمريكية

مرارًا، ووقاحته باتت تنذر بخطر خسران التحالفات الاستراتيجية كتحالف الناتو العسكري. ولعل هذا ما يفسر تصريح عضو مجلس الشيوخ الجمهوري السابق عن نبراسكا، ومقاتل سابق من حرب فيتنام، شغل منصب وزير الدفاع في ظل الرئيس السابق باراك أوباما، تشاك هاغل، الذي قال في مقابلة مع صحيفة «Lincoln Journal Star»: إن الولايات المتحدة والعالم دخلا "سنة حاسمة، وسنة من التقلب وعدم اليقين والخطر الكبير". وقد اتهم هاغل ترامب بأنه "يقسّم عمدًا البلاد والعالم" من خلال الانسحاب من التحالفات والصفقات التجارية، مثل الشراكة عبر المحيط الهادي. كما انتقد هاغل هجوم ترامب على الأجهزة الاستخباراتية الأمريكية، وهي سابقة لم يسبقه بها أحد من قبل، تهدد أمن وانسجام الأجهزة الأمريكية التي تعمل في سبيل مجد أمريكا. ولعل أوضح تصريح لهاغل حول بوادر تغير مرتقب في زعامة النظام الدولي بسبب سياسات ترامب غير المدروسة، تصريحه الذي قال فيه إن:

«السياسة الخارجية الأمريكية فى الوقت الحالى هى سياسة انقسامات ... هناك نظام عالمى جديد يجرى بناؤه وتشكيله فى الوقت الراهن».

الخلاصة

تعد هذه المرحلة من أهم المراحل التي يجب على العالم الإسلامي وقواه المختلفة أن تستغلها لصالح مستقبل أفضل وأكثر ازدهارًا وأمنًا، ذلك برفع مستوى الوعي لدى الأمة المسلمة بواجب العمل والاجتهاد في كافة المجالات للتمكن من سد الفراغ الذي سيجلبه انحسار النفوذ الأمريكي المرتقب، ثم لأن التنافس الدولي لن يقصي القوى الإسلامية من محاولة الصعود من جديد بسبب توفر جميع المقومات لهذا الصعود، سواء الحاجة الملحة للخروج من بوتقة الضعف والمهانة والذل التي سئمتها الشعوب المسلمة، أو بسبب ضعف أغلال الأنظمة الطاغية التي ستضعف بضعف الرأس المهيمن، ثم بسبب مشروع الصحوة الإسلامية ومشاريع النهضة التي -وإن كانت لا زالت تعاني الضعف والتضييق ولم تصل بعد للحجم المطلوب- إلا أن المستقبل يبشر بكل خير.

وكما فصل ذلك ابن خلدون في مقدمته الشهيرة، فإن أي دولة لها بداية وقمة ونهاية، وجميع السنن تدفع بسقوط الدولة المحاربة الظالمة أمريكا، لهذا فلا يحسبن أحد أنها مجرد تحليلات أو تخمينات غثائية، بل هي تستند على العقل وعلى الوحي معًا. فيا له من صباح ماجد ذلك الذي ستشرق فيه الشمس على أرض زال فيها طغيان الأمريكان ومعسكر الغرب، وأنارت معه أنوار الخلافة الإسلامية

الموعودة! وإن كـان يبـدو حلمًـا بعيـد المنـال عنـد بعضــهم، إلا أنـه نبوءة خير الأنـام في نظر المؤمنين والموقنين، ستتحقق يومًا وإن طال الزمان، ومن أصدق وعدًا من الله سبحانه.

الدولار الأمريكي والرأسمالية والإمبريالية العالمية

لا زالت الورقة الخضراء الأمريكية تتربع على عرش هيمنة العملات العالمية، لم يكن هذا من قبيل الصدفة أو نتاج المثابرة والتقى، ولكنه جزء من التخطيط الأمريكي التدريجي الماكر والحنكة للسيطرة على الاقتصاد والاستفادة بلا استجداء. فلو نظرنا للتعاملات الاقتصادية في العالم وفي كل المجالات سنجد للدولار الأمريكي حصة الأسد في التداول والتبادل، وأصبح بلا منازع كمقياس اقتصادي عالمي.

ورغم أنه مجرد عملة ورقية، لا يمكنها أن تغطي قيمتها من الذهب، إلا أنها أضحت اليوم أكبر خطر يهدد اقتصاد الدول، فالعملة الأمريكية تسللت إلى أدراج الاقتصاد العالمي بشكل يصعب به التخلي عنها بسهولة، ولكن في حال سقطت هذه العملة فستسقط معها الكثير من المؤسسات، وحتى الأنظمة الاقتصادية.

لمحة تاريخية

ما بين عامي ١٧٩٤ و١٧٩٥، مع الثورة الأمريكية، وفي أعقاب تأسيس نظام نقدي خاص بالدولة الجديدة، اعتمد ساسة الولايات المتحدة عُملة معدنية مُوحّدة أسموها الدولار الأمريكي، وكانت هذه العملة آنذاك مرتبطة بالذهب. وفي عام ١٨٦٢، ومع استنزاف الحرب الأمريكية الأهلية بين الشمال والجنوب، لجأت الحكومة الأمريكية لإنشاء العملة الورقية، الدولار المعروف اليوم، وهي مستغنية عن الذهب والفضة في صناعتها.

ولم يحظَ الدولار الأمريكي بشهرته وهيمنته العالمية إلا بعد الحرب العالمية الثانية التي خرجت منها أمريكا منتصرة، وفي وقت لم تتكبد فيه خسائر كبيرة كالتي تكبدتها الحكومات الأخرى المنخرطة في الحرب نظرًا لبعدها الجغرافي من جهة، ومن جهة أخرى لقدرتها على خلق اقتصاد حربي مُوازٍ لدعم وتمويل الحرب، دون إضعاف للاقتصاد المدني. وهكذا لمع نجم الدولار، تحديدًا بعد اتفاقية برتن وودس في سنة ١٩٤٤.

ووفقًا للاقتصادي البريطاني الشهير، جون كينز، الذي كان في نفس الوقت يشغل منصب ممثل الجانب البريطاني في المُفاوضات مع أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية، فإن أمريكا كانت تتجه نحو «استخدام منح قروض ما بعد الحرب كفرصة لفرض التصوّر الأمريكي للنظام الاقتصادي العالمي».

وهي اتفاقية برتن وودس ذاتها التي انتهت بتنظيم التجارة العالمية الدولية باعتماد الدولار الأمريكي كمرجعٍ رئيسي لتحديد سعر عملات الدول الأخرى، كما اشترط هذا النظام الجديد أن تربط كل دولة

عملتها إما بالذهب أو الدولار. ثم من هناك ظهر نظام الصـرف الأجنبي، وصـندوق النقد الدولي، والبنك الـدولي للتطوير والتعمير، وسـيطر الـدولار على العـالم. لقـد أضـحى الدولار بعد هذه الاتفاقية العملة الوحيدة التي يستطيع الناس استبدالها بالذهب، وترجع ثقة الدول بهذه الورقة كون أمريكا كانت تملك أكبر مخزون ذهب في العالم، لقد كانت أمريكا تمتلك وحدها ثلثي الرصـيد المالي العالمي إذا ما قيس بالذهب التقليدي أو بالذهب الجديد.

واسـتمرت الثقة بالدولار حتى ما يسـمى صـدمة نيكسـون، عندما خرج الرئيس الأمريكي نيكسـون في السـبعينات وأعلن بكل صـراحة أن بلاده لن تسـتبدل الدولار بالذهب، وأخضـع هذا القرار العالم كله لأن يتقبل استمرار الاعتماد على الدولار دون أي ارتباط مباشر بالذهب.

ويرى بعض الباحثين أن صـدمة نيكسـون كانت صـدمة فاضحة للخديعة الكبرى التي تجلت معها حبال مكر الأمريكان وقدرتهم على التلاعب والاحتيال، حيث اسـتطاعوا أن يسـيطروا على الاقتصـاد العالمي دون أن يتكلفوا قيمة الذهب التي يجب أن يغطيها الدولار، في حين يرى آخرون أن الأمر جاء تحصـيل حاصـل للتطور في النظام الاقتصـادي وفق متطلبات المرحلة، والذي جعل من الصـعب التخلي عن هذه الورقة بالنظر لدرجة تعلق الاقتصـاد العالمي بها. ثم بعد هذه الصـدمة لم تعد للدولار قيمة ثابتة تُحدد بالذهب، ولكن يتأثر بقيمته في السوق، بحسب العرض والطلب.

الدولار والنفط

لكن طموحات أمريكا الاقتصـادية لم تقف عند هذا الحد، بل اسـتمرت بدهاء في دعم الدولار؛ مسـتغلة بذلك أحد أهم الأعمدة الاقتصـادية في العالم، منظمة الأوبك للدول المصدرة للنفط، وهي المنظمة التي حصـرت تسـعير براميل إنتاج الدول الأعضـاء بالدولار فقط، وبهذا ضـمن الأمريكان بعد الاتفاق مع السـعودية -أكبر منتج نفطي في العالم- أن يسـتمر تداول الدولار في سـوق النفط بشـكل وثيق للحاجة المسـتمرة لهذه الثروة، ولا شك أن تجارة النفط كانت أحد أهم الأسباب الداعمة لثبات الدولار الأمريكي عالميًا، ولهذا وضـعت أمريكا جل جهدها في الهيمنة على هذا الميدان، وتمتين العلاقة بينه وبين أنواع الصناعات في العالم لتزيد من حجم فوائدها ومكاسبها المادية.

الدولار واليهود

ثم الحقيقة التي يجب أن تعيها الشـعوب المسـلمة هي أن الاقتصاد العالمي يخضع لتأثير مباشر لليهود، سـواء عن طريق السـياسـة أو عن طريق الهيمنة على الدولار. فاسـم روتشـيلد، وهو اسـم عائلة يهودية

امتلكت نصف ثروات العالم منذ القرن التاسع، ارتبط ارتباطًا وثيقًا بعالم الاقتصاد؛ فقد توسع نفوذها حتى امتلكت أرصدة كبيرة في بنوك مركزية لكبريات الدول، بما فيها الأمريكية. ثم كان لها الدور الرئيسي في التحكم في سوق الصرف والبورصات العالمية، وحتى في طباعة عملة الدولار.

الرأسمالية الأمريكية

ظهرت الرأسمالية لتعطي الحق المطلق والحرية الكاملة لرأس المال، فيربح صاحبه ويتملك بلا أدنى ضوابط أو عقبات، المهم أن يسود ويعلو صاحب المال، لا يهم ما يبيعه أو يتاجر به، بل الأهم كم سيحقق من الأرباح. وبهذه السياسة أضحى الربح يحدو جشع الإنسان، وتكسرت روابط القيم ومفاهيم الإنسانية.

فتفشى الاحتكار والخداع، ودفعت ثمنَ هذه الرأسمالية -التي لا ترحم- الشعوب، بل وحتى دول بأكملها، في سبيل أن تزدهر شركات الرأسمالية. لقد ساد العالم ظلم عظيم، تحتكر فيه الثروة طبقة ضئيلة تعيش في رفاهية على حساب الغالبية من الناس الذين يتضرعون جوعًا ويعانون من الحاجة والعوز، في حين لا زالوا يمثلون في نظر أصحاب رؤوس الأموال أهدافًا لجشعهم. لقد بيعت الإنسانية رخيصة في أسواق الربح، وديس على كرامة الإنسان بروح مادية طاغية. هذا هو النظام الرأسمالي الذي جاء به «العالم المتحضر» زعموا.

الإمبريالية العالمية

هي السبب الأول الدافع للاحتلال في العصر الحديث؛ احتلال أهدافه الأولى اقتصادية، تلجأ إليه الدول الرأسمالية الكبرى لأجل خلق أسواق جديدة تبيع فيها منتجاتها، بما فيها الأسلحة. وفي ذات الوقت تؤمن لشركاتها ومصانعها مصادر جديدة للثروات والمواد الخام، وحتى اليد العاملة غير المكلفة.

وبهذه الدوافع المغرية احتلت بلاد المسلمين من المستعمرين الفرنسيين والإنجليز، وحملت راية الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية أمريكا بإمبرياليتها العالمية. وكونها كانت تحتل مكانة المنتصر في العالم؛ طوعت النظام العالمي على أسس إمبريالية بحتة، وعملت على تأسيس نظام عالمي على الأسس الإمبريالية التي توسعت أكثر وانتشرت بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وطورت وسائلها في ذلك؛ فكانت العولمة والديمقراطية أحد أهم وسائلها. وها قد نجحت الإمبريالية الأمريكية في الهيمنة على الاقتصاد العالمي، وباتت المنتجات الغربية محتكرة، تستهلكها الشعوب بلا استغناء.

وأصبحت هذه السياسة تُخضِع الشعوب للماديات؛ تعيش لأجل المادة، وتموت في سبيل المادة، وتبذل وتكافح من أجل هذه المادة، فتفشّت عقدة الموضة والتنافس المذموم في اقتناء اسم تجاري يخلق تفاضلًا ماديًا بين المستهلكين، ويقاس به مكانة الفرد أو يزدرى. وترتب على ذلك تعميق الهوة بين الطبقات في المجتمع.

وتمكنت أمريكا والدول الكبرى من أن تتحكم في الحاجة الاستهلاكية لشعوب برمتها، فتوقدت النزعة الشرائية للأفراد بالدعاية والإغراء، وتسابق الناس بجنون على المطاعم والملاهي، وحتى المحرمات كالمخدرات ودور الزنا؛ فحين تكون المسألة أرباحًا، فلا قيم تُحترم، ولا ضوابط تزجر. المهم أن تغذي أمريكا بذلك عجلة الاقتصاد لديها باستمرار. ثم لا عجب أن تصبح تجارة الأسلحة والمخدرات والجنس هي الأولى في قائمة التجارة العالمية، قبل الطعام والأدوية التي تعتبر أساسيات في حياة البشر.

ويغرق الفقراء في دوامة توفير مستلزمات الحياة، لأن مبدأ اللارحمة قد ساد العالم، فتجلى مشهد العبودية بأبشع ملامحه، وتحول الإنسان إلى آلة العبودية الحديثة، يستعبد فيها أصحاب المال الفقراء، وأصحاب الشركات المستهلكين، وأصحاب النفوذ الأكبر والأصغر.

ومُحقت البركة وتفشى الربا وطحن القوي الضعيف، وأصبح صندوق النقد الدولي ومنظمة ما يسمى التجارة الدولية الوسائل التي تستعبد فيها الشعوب. ولا أوضح من الأزمات التي تعاني منها البلدان المسلمة، فقد اشترط صندوق النقد الدولي على السودان مثلًا رفع أسعار الخبز على الشعب مقابل تقديم قرض للبلاد، فسارعت الحكومة لرفع سعر أهم مادة غذائية لتفاقم من معاناة الفقراء.

وحين احتجت الجماهير وخرجت للشارع، قُمعت وزُجَّ بها فى السجون. وشعوب أخرى صمتت وابتلعت الغصاصة! وهكذا يقبع المواطن المسلم بين سندان الأنظمة العميلة۞ ومطرقة النظام الدولى الظالم.

ثم يزيد الطين بلة أن تمتلك كبريات الشركات العالمية رجال سياسة، يوجهون سياسات حكوماتهم لصالح نجاح وتألق شركاتهم، وهذا تمامًا ما حدث مع حرب العراق وأفغانستان؛ حيث استنزفت ثروات هذين البلدين، وخاصة من النفط والذهب واليورانيوم، لصالح شركات النهب التابعة للإمبريالية الأمريكية، أو ما يسمى الشركات متعددة الجنسيات تحت غطاء إعادة الإعمار.

لقد نال المسلمين الأذى الأكبر من هذه السياسة الاقتصادية الجائرة، لهذا فعليهم أن يدركوا حقيقة النظام الماكر الذي يقود اقتصاد العالم اليوم، وأن يبحثوا في البحوث والكتابات التي فضحت هذا النظام وكشفت خيوط مكره، ككتاب العميل السابق لوكالة الأمن القومي الأمريكي جون بيركنز بعنوان (الاغتيال الاقتصادي للأمم). حيث يفصل بشهادته كيف تمكنت البنوك والشركات العالمية من سرقة دول العالم الثالث، وإغراقها بالديون، ومن ثم وضعها تحت إشراف البنك الدولي وصندوق النقد الدولي.

دعم الاقتصاد الأمريكي يعني مزيدًا من المعاناة لشعوبنا

واليوم في عصر الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، نشاهد الجهود المبذولة من رجل الأعمال الملياردير لتسريع نمو الاقتصاد الأمريكي، وخفض البطالة، وتجاوز الأزمة الاقتصادية التي عرفتها البلاد في وسط عالم تتسابق فيه كبريات الدول كالصين، التي تتميز باقتصاد منافس بامتياز. ثم في عالم مليء بالحروب التي لم تحسم نهاياتها بعد، ولا زالت تستنزف الخزينة الأمريكية؛ حتى أضحت الميزانية المخصصة للعسكرية هي الأضخم، وتثير جدلًا واسعًا في كواليس الكونغرس الأمريكي.

ولأجل تحقيق هذا الهدف، لا بد من أن يدفع الفواتير بيت مال المسلمين، وأن يعوض النفط في بلاد المسلمين، وأن يسند هؤلاء المسلمون الضعف. وقد شاهدنا سخاء بعض الحكومات العربية، ودفعها أرقامًا مذهلة تكفي لسد حاجات مليار ونصف مليار مسلم، فقط لأجل رفاهية الأمريكان وحيازة ثقتهم ورضاهم.

الخلاصة

وفي الختام، ما أود أن أصل إليه كخلاصة، هو أن هذا النظام الاقتصادي الذي فرضته أمريكا علينا، وهذه الإمبريالية الأمريكية المهيمنة، هي جميعًا تصدر عن مصدر واحد، تصدر من تلك الحضارة المادية التي لا قلب لها ولا ضمير، تلك الحضارة التي لا تسمع إلا صوت الآلات، ولا تتحدث إلا بلسان التجارة، ولا تنظر إلا بعين المُرابي، والتي تقيس الإنسانية كلها بهذه المقاييس. فكيف يمكن لمثل هذه الحضارة أن تقود العالم بعدالة؟ أو أن تحقق التوازن والاستقرار بين الشعوب؟

وكيف يمكننا -كأمة مسلمة طموحة للتخلص من أغلال هذه الهيمنة الظالمة- أن نتحرر، إن لم نحطم هذا النظام الأضحوكة برمته؟ هذا النظام الذي بسببه نُهبت بلاد المسلمين، وشُرد أبناؤهم وقُتلوا، وضاع مستقبل شعوب برمتها غدت مستعبدة لديون الطغاة الذين باعوا ثروات أغنى الأوطان بأبخس الأسعار،

وعمّقوا من معاناة الضــعفاء، ووســعوا من شــريحة الفقراء، وبرزت الطبقية بجلاء، وأصــبحت أحلام المسلمين لا تتعدى لقمة عيش تسد رمق الجوع.

إن أمة عظيمة كأمة الإســلام، لها عقيدة عظيمة وشــريعة حكيمة وطاقات زاخرة وتاريخ ماجد عريق، وحضـارة قد أعيت ما بعدها وما قبلها من حضارات أن تبلغ ما بلغت من رقي وازدهار وعدالة واستقرار، جدير بها أن تنهض من جديد. وحين يكون كل هذا رصــيد أمة مســلمة، فكيف لها ألا تقوم من جديد؟ كيف لها أن تقبل الرق والاستعباد على أيدي كافرين؟!

حريٌّ بنـا أن نبني نظـامًـا اقتصــاديًـا مهيمنًـا قويًـا تدعمه ثروات هذه الأمة وهمم أبنائها، علينا أن نقطع الطريق على كل السـرقات والنهب لثروات المسـلمين، علينا أن نتصـدى لكل لص مهما كانت مكانته في ســدة الحكم، علينـا أن نعيـد العمـل بنظـام الزكـاة ونظـام بيـت مال المســلمين الذي كان يغطي حاجة المسلمين ويوزع الكفالات على المحتاجين وينفق على الأطفال والنساء؛ فنعيش في عزة وكفاء.

بيـت مال المســلمين الذي كان يكفي، ليس فقط لتغطية الحاجات الداخلية للدولة الإســلامية، بل كان قادرًا على تغطية تكاليف الجيوش الفاتحة التي جابت الكرة الأرضية تنشر الإسلام، وتقيم العدل وتنير الظلمات، فسـطرت أروع تاريخ للبشـر. وحين ننظر لحجم الخير الذي سـتناله الشعوب المسلمة، فإن كل جهد وجهاد وتضحية في سبيل هذا الهدف يهون، وكل عقبة مهما كانت كؤودًا ستزال وتذوب.

يوم كانت أمريكا تدفع الجزية للمسلمين

لم يكن مستغربًا دفع الجزية للمسلمين حين كان سلطان الخلافة يبسط ظلاله على خريطة العالم، ولكنه مستغرَب ومستهجَن الحديث عن الجزية في غير ذلك العصر؛ لما ارتسم في أذهان الناس من ضعف نال من قوة المسلمين، كما يزيد من الذهول، بل والإنكار، أن تذكر أمريكا في قائمة الدول التي دفعت الجزية للمسلمين، كون هذا الاسم ارتبط بالقوة والعظمة والاستكبار، وكون الخبر اندثر في رفوف النسيان فلم يكن له صدى ولا أثر.

نعم، فلم تكن سلسلة الحروب الثقيلة التي تحملها مجلدات التاريخ الأمريكية الوحيدة في حياة الأمريكان، بل هناك حروب لم يذع صيتها لغفلة أو لعمد. وهذا حال الحرب البربرية الأمريكية الأولى، أو ما يسمى حرب الساحل البربري بين عامي ١٨٠١ و١٨٠٥، والتي حملت هذه التسمية نسبة إلى ساحل شمال أفريقيا الغربي. كما تسمى أحيانًا «الحرب الأميركية المنسية»؛ كونها غابت من الذاكرة الشعبية الأمريكية في غضون جيل واحد. وما يميز هذه الحرب عن غيرها هي أنها أول حرب شنتها أمريكا خارج حدود البلاد، وكانت ضد سلطنة المغرب (مراكش) المستقلة، والولايات العثمانية الثلاث (الجزائر وتونس وطرابلس) التي كانت تقع في شمال أفريقيا، وانتهت بهزيمة الأمريكان وإذلالهم.

سبب اشتعال شرارة الحرب

وتبدأ قصة هذا العار الذي ألمَّ بالأمريكان على يد المسلمين حين رفضت أمريكا دفع الجزية للحاكم العثماني في طرابلس «يوسف قرة مانلي» نظير دخول الأسطول الأمريكي إلى البحر المتوسط. وعلى عكس ما كان مفروضًا عليها، دخلت السفن الأمريكية مياه المتوسط ضاربة بعرض الحائط بتصاريح البحرية العثمانية اللازمة لذلك.

أما الرد العثماني اتجاه هذا التمرد من قبل الأمريكان فقد ترجمه والي الخلافة العثمانية بتكسير سارية العلم الأمريكي في سفارة الولايات المتحدة بمدينة طرابلس الليبية، وبإهانة السفير الأمريكي وطرده. وكانت هذه الأسباب الأولى لاشتعال شرارة الحرب بين الطرفين.

إقرار أمريكي واتفاقيات دولية

وقد كان متفقًا أن يدفع الأمريكان للأساطيل العثمانية والأساطيل البربرية التابعة لدول الساحل البربري الجزية مقابل أن تقوم من جهتها بحماية السفن التجارية التي تعمل في البحر المتوسط، وكان الاتفاق

أيضًا على أن تقدم أمريكا آلات ومهمات حربية قيمتها ٤ آلاف ريال، و١٠ آلاف ريال أخرى نقدًا مصحوبة بهدايا قيمة. ثم لم تكن أمريكا وحدها من يدفع الجزية، بل شاركتها في هذه الحال جميع الدول الأوروبية التي تستفيد من الحماية في الممر المائي في المتوسط.

وتجدر الإشارة أن الأمريكان أنفسهم لجأوا للعثمانيين طلبًا للحماية والنجدة في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وبعد أن تعرضت السفن الأمريكية للاعتداء وعجزت عن حماية سفنها؛ لجأ الأمريكان إلى التوقيع على معاهدة مع تركيا في ٥ سبتمبر ١٧٩٥م، مكتوبة باللغة التركية، وهي المعاهدة الوحيدة المكتوبة بغير اللغة الإنجليزية، وأقر فيها أول رئيس أمريكي «جورج واشنطن» دفع الجزية للمسلمين، وسلم العثمانيين على الفور ٦٤٢ ألف دولار ذهبي، و١٢٠٠ ليرة عثمانية، أطلقت على إثرها الجزائر سراح الأسرى الأمريكيين الموجودين لديها، وحظيت السفن الأمريكية بالأمن والحماية خلال إبحارها في مياه المتوسط أو الأطلسي.

الأمريكان يجمعون ويمكرون

ولكن الأمريكان لم يرضوا بهذا الوضع وهذه التبعية، فقاموا بتقوية قواتهم البحرية وإرسال أسطولهم البحري إلى المتوسط، وكان ذلك في عهد «توماس جيفرسون»، ثالث رئيس للولايات المتحدة الذي قال: "سوف نلقن هذا العثماني الأبله ـويقصد حاكم طرابلس- درسًا لن ينساه في فنون القتال».

«وسنجعله نصرًا مدويًا ندشن به حقبة جديدة لأسطولنا وتواجدنا العسكرى فى أكثر مناطق العالم حيوية، وبهذا أيها السادة نكون قد خطونا الخطوة الأولى نحو بناء الإمبراطورية الأمريكية».

كانت هذه اللغة المستكبرة التي بدأت بها أمريكا خطواتها الأولى في التخطيط للتمرد على الاتفاقات الموقعة مع المسلمين، ورافق هذا التخطيط مماطلة في دفع الجزية المفروضة على الأمريكان.

ولم تتوقف ردود الأمريكان على مجرد تصريحات، بل أرسل الرئيس الأمريكي توماس جفرسون فعلًا أسطولًا بحريًا بهدف رد إهانة والي طرابلس يوسف قرة مانلي، ولكن المفاجأة التي كانت تنتظر جفرسون هي هزيمة كارثية لجيشه انتهت بمحاصرة الأسطول المغرور وأسر «فيلادلفيا» أكبر سفينة أمريكية؛ ليستسلم إثر ذلك حوالي ٣٠٠ بحار أمريكي، وبان العجز الأمريكي بشكل أكبر حين فشلت في استعادت سفينتها وتحرير أسراها.

المحاولات الأمريكية لم تقف عند الميدان العسـكري، بل لجأت إلى الحيلة والمكر حين حاولت توظيف الخلافات بين والي طرابلس وشـقيقه «أحمد باشا قرة مانلي» في مصر، ولكنها محاولات باءت بالفشل رغم ما قدمه الأمريكان من رشـوة لأحمد باشـا في سـبيل تغيير نظام حكم شـقيقه وتسليمه دفة الحكم بدلًا منه.

وكانت المفاجأة الأكبر للأمريكان حين حاصروا مدينة درنة شرق ليبيا، ثم انتهى حصارهم بهزيمة شنيعة على يد قوات المسلمين التي استنجد بها والي طرابلس من المغرب والجزائر وتونس والدولة العثمانية، فهبت ملبية كالسيل الجارف لتكبّد الأمريكان في يوم واحد خسارة ١٨٠٠ من جنودها، وتأسر ٧٠٠ آخرين، فيما حوصر الباقي.

وأدت هـذه الهزيمـة بـأمريكـا إلى توقيع اتفـاقيـة مـذلة لها مع ولاة تونس وطرابلس والجزائر والمغرب، بموجبها تدفع أمريكا تعويضًـا للدول الإسـلامية عن كل جندي قُتل، وتدفع أيضًـا الجزية مضـاعفة عن السابق، فضلًا عن الاعتذار للدول الإسلامية الثلاثة.

لغة الأقدام الثقيلة

هنا فقط، وحين قالت الأقدام الثقيلة كلمتها، طأطأت أمريكا رأسـها، وجاءت مرغمة تجر أذيال الهزيمة لتجلس على طـاولـة المفـاوضـات ذليلـة، ولتوقع معاهدة أخرى أذلّ من الأولى في تركيا، وهي اتفاقية طرابلس في ١٠ يونيو ١٨٠٥. أين تكلفت أمريكـا أضـعاف الجزية الأولى التي كانت تدفعها، وأصـبحت ملزمة بدفع غرامات مالية تقدر بثلاثة ملايين دولار ذهبًا، وضريبة سنوية قدرها ٢٠ ألف دولار. واستمرت أمريكا في دفع هذه الجزية مكرهة مهانة لتضمن حماية سفنها من القوى الإسلامية حتى سنة ١٨١٢م.

للتاريخ ضمير لا ينسى

قـد يحاول الأمريكان محو هذه الصـفحات من كتب تاريخهم، وتغييب هذه الحقائق عن أبنائهم، ولكن يأبى الحق إلا أن يظهر على ملكات ألسـنتهم، وهذا ما فضـحه نشـيد البحرية الأمريكية الشـهير والذي يقول مطلعه «من قاعات مونتيزوما إلى شـواطئ طرابلس نحن نحارب معارك بلادنا في الجو والأرض والبحر».

في إشـارة إلى المعركة التي بقيت محفورة في ذاكرة الأمريكان بسـبب مرارتها وقوة إهانتها لكبريائهم وغرورهم.

أما نحن كمسـلمين فعلينا أن نعي أن أي مفاوضـات مع الأمريكان لن تكون مجدية دون قوة قاهرة على الأرض، وأن أي خيار سـياسـي لن يكون مثمرًا إلا إذا أسـندته غلبة عسكرية في الميدان، وأن أي مغامرة دون تمكين للأقدام الثقيلة ستنسف كل التضحيات والجهود في مهبات الانتحار.

فلا سـياسـة بلا قوة عسـكرية، ولا مفاوضـات بلا انتصـارات في الميدان، وإن كانت أمريكا قد دفعت الجزيـة بـالأمس للعثمـانيين، فلن يكون أمرًا مسـتحيلًا أن تـدفعها غدًا لقوم أحسـنوا الثبات والالتزام بأسباب العزة والنصر.

خلاصات ودروس تعلمتها من أمريكا التي رأيت

لكل نفس بشـرية خبرات تسـتلهمها من التجربة والمعايشـة الحية لواقع ما. وحين تكون المعايشـة بالحفاظ على الأصـل، أصـل العقيدة والمفاهيم الإسـلامية السـامقة، يكون التأثر مختلفًا، واسـتخلاص النتائج مغايرًا لما يحصل مع من يدخل وسطًا وهو فاقد لهويته وأصالته وعقيدته.

فلا ريب أن الخلاصات التي نخرج بها بعد معايشة الأمريكان تختلف بحسب ما نحمله من هوية وأصالة وعقيدة، ولهذا فإن ما أخطه اليوم من استنتاجات جنيتها من خلال تجربتي في أرض أمريكا قد يختلف معي فيها من يرى في القوم أصـحاب حضـارة سـامية وحرية حقيقية ورقي ملهم! ولكن سـيتفق معي حتمًا من استقى من نفس معين العلم.

الإسلام الذي يريده الأمريكان

إن أول ما خلصـت له من خلال معايشـتي للواقع الأمريكي هو مفهوم الإسـلام الذي يريدونه، وطبيعة الإسلام الذي ينشرونه، ونموذج الإسلام الذي يشجعون عليه، خاصة وأنهم يحتاجون للمسلمين باستمرار وبلا نقاش؛ يحتاجون لثرواتهم ونفطهم، يحتاجون لمواقعهم ومساعداتهم، يحتاجون لطاقاتهم وولائهم، يحتاجون لخضوعهم وتبعيتهم.

وقد سبق وأن استعانوا بهم في مكافحة الشيوعية حين تناطحت والرأسمالية الغربية، كما وظفوهم في كل القضايا التي تدعم وجودهم وعلوّهم في الأرض، ولهذا تجدهم يحفظون العلاقة بكل ما هو إسلامي، وإن كانوا يحاربونه بأشـكال مختلفة وبطرق مباشـرة وغير مباشـرة. فالإسـلام هو الدين الوحيد الذي يخلق الرعـب في نفوسـهم، ليس للإرهـاب كما يزعمون، بـل للعبقريـة التي يقـذفها في قلوب العاملين كالترياق العجيب الذي يسـقي الهمم؛ فتقوم على سـواعد أصحابها حضارة عطاء قل لها نظير، تعلو على كل سبق أو رقي وصلت له حضارات أخرى.

هذا إن تحدثنا عن الجانب المادي، فكيف سـيكون أثر هذه الحضـارة حين تجمع بين المكاسـب المادية والروحية معًا! إنها الحضارة الأفضل والأمثل في تاريخ البشرية ولا يمثلها سوى الإسلام. لهذا فهو تحت الرقابة وتحت الحصار يتربص به مكر اللئام.

فالأمريكان علموا وأدركوا، بشـكل لا لبس فيه، أن محو الإسـلام مهمة مسـتحيلة، ومحاربته بحروب صـليبية مباشـرة لاقتلاع حصـونه خطة متهورة، فلجأوا إلى أمركة هذا الإسـلام وتهجينه بالشـكل الذي يحقق لهم أمـانيهم، مشـترطين ألا ينـادي دعـاتـه بـالمقـاومـة والحريـة والثورة على الطغيان؛ لأن هذه

الدعاوى تعني أن الشعوب ستعلم بأن إعداد القوة فريضة، وأن طرد المستعمر فريضة، وأن كل استعمار مهما تعددت أشكاله وباء.

لهذا فهم يرحبون بكل المناقشات الدينية التي تغير مفاهيم الإسلام العظيم، ويعتنون بأولئك الكتاب من الطابور الخامس الذين سخروا حبرهم لتلميع المستعمر وتجميل قبيح صنيعه، أو الذي يعمدون إلى ليّ النصوص لتوائم التغريب والعلمنة والديمقراطية الخادعة.

فكم من برنامج يصرف عليه ما يصرف من أموال في سبيل احتقار أحكام الشريعة، وفي ذات الوقت يتحججون بأنها ليست من الإسلام؛ لينسلخ المسلم من شريعته ويواكب ما يسمونه العلمنة! في حين من ينتقد أحكام الإسلام هذه هو ذاته من سطر أبشع صفحات التعذيب للإنسانية في كل مكان! وقد وثقت الصور ما تشمئز منه نفوس البشر... ثم يرفعون لافتات حقوق الإنسان، وينادون بالحريات!!

لقد شاهدت في أمريكا مختبرات أقيمت وموّلت وجهزت فقط لإحداث أكبر قدر من الألم في أجساد السجناء العزل المعذبين في سجونهم بطرق ووسائل أقل ما توصف بأنها شيطانية خبيثة مهلكة، بل جبانة!! فهل من يفعل هذا يحق له أن يحتج على حكم إسلامي قام لإنصاف المظلوم وتحقيق العدالة في الأرض! فلننظر إلى أي درجة انحطاط وصل لها الأمريكان، ثم يتجرؤون على ازدراء أحكام الإسلام، في حين مسخوا الإنسانية من أصلها! ثم جعلوها تشريعًا يحق لهم مزاولته لأجل «أمريكا أولًا».

وأما من يبث مفاهيم الإسلام الذي يحكم الحياة ويصرفها، خاصة تلك المفاهيم التي تتحدث عن الحكم بالإسلام، والتشريع بالإسلام، والانتصار للإسلام، فيُحرَم أصحابها المنابر ويُحارَبون ويُنفَون في أقبية السجون.

ولهذا نجد الصوفية والمرجئة فرقًا مرحبًا بها لدى الأمريكان، وتتلقى الدعم المستمر لتطغى مفاهيمها بين الجماهير؛ ذلك أنها عقائد خالية من العمل تبدد في طاقات الأمة في شكليات وطقوس لا تنفع بل تضر. وحتى يضمن الطغاة تنفيذ المهمة، يتكفلون بالقضاء على علماء الأمة الربانيين، أو يتم كتم علمهم وتشويه سمعتهم ومحاربتهم.

فالعلماء هم قادة الجماهير، هم نبض أي ثورة أو جهاد أو مقاومة، هم من يقود الجموع كما قاد العز بن عبد السلام المسلمين لعين جالوت؛ فانتصروا على أكبر جبار -حينها- كاد أن يفني المسلمين. ولأن هؤلاء العلماء الربانيين بيدهم أن يقلبوا حال الأمة بشكل مذهل، يقلبوها من ضعف لقوة، ومن استكانة لإقدام، ومن فراغ إلى جد وعمل، كانت خطة الطغاة؛ انصياعًا لأوامر الأمريكان: استهداف العلماء وتنصيب

رويبضات وعملاء يسدون الفراغ، فيفتون بغير علم أو بمكر عالم سوء؛ ليضلوا الناس ويضمنوا أمركة الإسلام، وكذا تخدير القوى الإسلامية والطاقات!

ولا أوضح من التدخل الأمريكي في مناهج التربية والتعليم، وإلزامهم وزارات تعليم بعينها حذف سور قرآنية ودروس شرعية تحث على الإعداد والجهاد. ثم بدلًا من ذلك، عمدوا إلى توجيه الدروس للعلمانية اللئيمة والمصادر الركيكة، التي لا تمثل هوية ولا أصالة هذه الأمة، فضلًا عن عقيدتها! ثم يجدون مع هذا الظلم كله أوفياء لمكرهم يخدمونهم خدمة الأولياء.

أكذوبة العالم الحر

خلاصة أخرى خلصت إليها فى أمريكا؛ وهى أكذوبة العالم الحر!

فإن تعجب فاعجب لعالم يوصف بالحر وهو في الواقع مستعمر مستبد، قد ألقى حبال هيمنته على شعوب برمتها، واستنزف ثرواتها وتسرطن في مكوناتها، وقضى على آمال نهوض أبنائها، ثم يزعم كذبًا أنه عالم حر!! فأي حرية هذه التي تأسرني وتسجنني وتمنعني من النهوض؟ أو ترفض أن أعيش وفق مبادئي ومفاهيمي وأهدافي كمسلم حر؟!

إن هذا العالم المسمى «حرًا» عالم كذب وزور وبهتان، لم يفلح إلا في كتم أنفاس الأحرار في كل مكان؛ لأن رسالة العالم الحر هي أن يكون حرًا في قتل الحرية حسبما يشاء! فهو -العالم الحر- الذي يرتكب من الجرائم ما يقشعر له ضمير البشرية. وذلك رغبة في نقل مبادئ الحضارة الغربية طَوعًا على يد البعثات التبشيرية، فإن فشلت فكُرهًا عن طريق القصف وضربات الطيران؛ ثم من يجرأ على المحاسبة؟!

وهو -العالم الحر- الذي يمزق إهاب الحرية ويمثل بجثث الضحايا من الأحرار، ويقتل الأطفال والنساء والشيوخ في القرى الآمنة، ويرتكب الجرائم الوحشية التي يرتكبها بلا تحرج، ويقصف باليورانيوم وكل سلاح فتاك، ويزرع الدمار في الأرض، ويحاصر الضعفاء فيقتل منهم بالملايين ولا يبالي. كل هذا لأجل هدفه الأهم؛ وهو نقل مبادئ الحضارة الغربية بطريقة عملية إلى الشعوب «المتأخرة»، التي لا يجوز أن تظل متأخرة، على وصف سيد قطب للنظرية الأمريكية تجاه شعوب المسلمين.

وهو -العالم الحر- الذي ينادي بإرساء الديمقراطية في بلداننا، وحين صدقه «البلهاء» اكتشفنا أنما هي الديمقراطيات التي تحكم حكمًا ديكتاتوريًا مباشرًا، تحرسه الجاسوسية الرهيبة، ولا تسمح لفرد من الشعب، فضلًا عن الشعب، كله أن يفكر بحرية. وهو -العالم الحر- الذي أقام "أبو غريب" و"باغرام" و"غوانتنامو"، وجعلنا نشاهد أبشع قبح إنساني لم نتخيل يومًا أن يصل إليه إنسان.

ثم مع هذا كله، نجد الأبواق التي تهتف بحمد الحضارة الغربية، أو تسبح بحمد الصداقة الأمريكية، أو تنادي بضرورة إرساء قواعد التعاون مع "العالم الحر"، وتشيد بجهوده في الخدمات الاجتماعية والإنسانية والتعليم الأساسي، واليونسكو والأمم المتحدة، وسائر الوسائل الاستعمارية الحديثة التي تنجز في صخرة المقاومة الشعبية.

وكيف لا تستمر هذه الأبواق في عملها الدنيء وهي تتلقى الأموال الضخمة لتستمر لاعبًا محوريًا في هيمنة "العالم الحر" على العالم الإسلامي؟!

فهذا "العالم الحر" لا يحاربنا بالمدفع والدبابة إلا في فترات محدودة؛ ولكنه يحاربنا بالألسنة والأقلام، ويحاربنا بالمنشآت "البريئة" في مركز التعليم الأساسي، وفي هيئة اليونسكو وفي الأمم المتحدة. ويحاربنا بتلك الجمعيات والجماعات التي ينشئها وينفخ فيها ويسندها ويمكن لها في المراكز الحساسة في بلادنا. وأخيرًا، فإنه يحاربنا بأموال أقلام المخابرات التي تشتري الصحف والأقلام ووسائل الإعلام ومنابر الخطباء وتشتري الهيئات والجماعات.

وهذه كلها تسمى الوسائل الاستعمارية الحديثة، مع العلم أن خطر الاستعمار الروحي والفكري هو الأعظم علينا من خطر الاستعمار الحربي العسكري؛ ذلك أن استعمار الحديد والنار يثير المقاومة بطبيعته، ويؤرث الأحقاد القومية التي تقتلع الاستعمار من أساسه. أما الاستعمار الروحي والفكري فهو استعمار ناعم لين، مخدر، ينوم الشعوب ويستل أحقادها المقدسة التي يجب أن تتأجج وتستحيل نارًا وشواظًا. يحرق ويدمر الاستعمار عملاءه في يوم من الأيام.

ولهذا حتى نحطم صنم "العالم الحر" ونطمسه من الوجود ونسقط أقنعته المخادعة تمامًا، علينا أن نخلص ضمائر الجماهير من هذا الاستعمار الروحي والفكري، ونحطم كل الأذرع والأجهزة التي تخدم هذا الاستعمار، ونتبرأ من كل لسان أو قول ومن كل جمعية أو جماعة تتمسح بمعسكرات هذا الاستعمار.

سياسة فرق تسد

ومن الخلاصات التي وصلت إليها بعين الباحث: توظيف الأمريكان لسياسة "فرِّق تَسُد" بين المسلمين لضمان استمرار نفوذهم وهيمنتهم في العالم الإسلامي. ولا شك أنهم استغلوا سايكس بيكو أيما استغلال، ونجحوا في تغذية النعرات القومية والوطنية التي تجعل المسلمين يتنافرون وقبلتهم واحدة!

وما يفت في الفؤاد أولئك القوم من بني جلدتنا الذين لا زالوا يؤمنون بضمير الأمريكان، وقد انفضح الضمير الأمريكي في تصريحات ترامب الصريحة وتصرفات إدارته الشنيعة. ولا أوضح من تسليم

القدس عربون محبة للصـهاينة، ودعم بلا حدود لكل ظلم لهم وعدوان في فلسـطين، ناهيك عن سـجل الجرائم الثقيل الذي تحفظه أسفار التاريخ، ورغم ذلك لا زال الكثيرون مخدوعين بهذا الضمير الخبيث.

وأما تلك الكتلة الصـغيرة التي بقيت تنادي بمعاداة الغرب لضـميره المتعفن وحضـارته الزائفة وخدعته الكبيرة الديمقراطية، فوُصِـموا بالإرهاب والرجعية والتطرف والتخلف عن ركب الحضـارات في العصـر الحديث.

ومع هذا كله، تستمر الأحلاف العربية الأمريكية، وتضخ أموال المسلمين في بنوك الكافرين الأمريكيين، وتوظّف الأراضـي الإسـلامية خدمة للقواعد العسـكرية الأمريكية، ويلقى الأمريكي في بلاد المسـلمين أفضل معاملة وخدمة، في حين يهان فيها ابن الإسلام عمدًا وأمدًا!

وحين يسـتنجد مسـلمون في زاوية ما في الأرض، تتوجه الأنظار إلى المارد الأمريكي لعله يمن عليهم ببعض اهتمام، ونسوا أو تناسوا أنه الشيطان بعينه، يدفعهم لمصير مهلك أو العبودية الشنعاء!

يقول نبي الإسـلام الكريم -صلى الله عليه وسلم-: "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين". وها نحن نلدغ من الجحر الواحد مرات، ثم نعود في كل مرة إلى هذا الجحر نفسـه مغمضـي الأعين نتطلب "الشـهد" من جحور الأفـاعي. ولا نجرب مرة واحـدة أن نحطم هذه الجحور وأن ندوس هذه الأفاعي، وأن ننفض عن نفوسنا ذلك الوهم الذي يقودنا المرة بعد المرة إلى تلك الجحور!

لقـد كـذبوا علينـا بـالمفـاوضـات، والمحـادثات، والمؤتمرات. عرفناها في قضـية فلسـطين والعراق وأفغانسـتان، ولا زالوا يجرعوننا مرارتها في سـوريا بكل اسـتغفال. وحقيقة لا أرى أبلغ من وصـف سـيد قطب لها: إنها قصـة الجحور والأفاعي، وقصـة اللدغ المتكرر من هذه الجحور. وإنها المأسـاة، ولكن من العدل أن نبرئ منها الشعوب المسلمة؛ فلا تؤخذ بجريرة حفنة من الساسة الضعفاء المرضى المتهالكين!

الحضارة المادية لا تقيم عدلًا

قلبت بصري في كل إنجازات ومشاريع الأمريكان في الداخل الأمريكي وفي العالم فلم أجدها عادلة؛ بل إن الغني يسـتنزف الفقير، والأبيض يسـتعبد الأسـود، والقوي ينال من الضـعيف. وعلى مسـتوى العالم يسـتغفل الجميع، وينقادون طوعًا أو كرهًا لسـياسـات البيت الأبيض، وإلا فيكفي النظر في منظومة السلاح النووي المنتشرة في أوروبا وقواعدها العسكرية المتناثرة في زوايا الأرض، حتى نعلم أن لا أحد يجرأ على تحدي الأمريكان.

هذا دون الحديث عن نظام الضرائب الثقيلة وسياسات تحصيل الأموال المهلكة وديون الربا والاستغلال المادي، كلها تقيم جورًا لا عدلًا. ثم ذلك القضاء العنصري الذي يبرئ القاتل الأبيض حين يكون المجني عليه أسود، أو يظلم امرأة لأجل حشمتها ودينها، أو يعطي الحق للماكر وإن كان ظالمًا، فالويل لمن يعتقد أن عند الأمريكان عدالة.

بل فيها الانتحار بمعدلات قياسية، والأمراض النفسية متفشية بإصرار، وحب الانتقام بدافع استرداد الحقوق، وكل ما يعكس هشاشة العدالة في هذه البلاد لا يخفى على معاين. ثم إنها دولة قامت على الظلم والعدوان، فمن أين لها العدالة؟! حتى داخل المجتمع الأمريكي، يظلم المرء ولا يتجرأ على فعل شيء، يقيد بأغلال الضرائب فيختنق ولا يجد مخرجًا إلا الاستدانة، ومع ذلك لا يجرأ على الانتقاد.

لقد كانت شرطة المرور تتفنن في سرقة أموال السائقين بشكل مثير للدهشة، ولا تجد إلا الصمت والمداراة؛ فهذه ضريبة تدفع بلا جدال وإن لم يقترف السائق ما يستوجب دفعها، ثم تبصر تلك الابتسامة الصفراء على وجه شرطي المرور لأنه جمع المدخول أو السرقات اللازمة لمكتب شرطة المرور لتنضم إلى بقية مداخيل الدولة. لقد رأيت مجتمعًا يفتقد للعدالة بكل ما تعنيه كلمة الفقد من معنى، والقصص في هذا الباب لا تحصى! لكن بعض السذّج يصدقون دعايات الأفلام والإعلام.

ويكفي تأمل حرب دونالد ترامب منذ استلامه منصب الرئاسة التي شنها على مشروع أوباما كير كي يحرم الطبقة المعتدلة والفقيرة من حق العلاج، ويستغل جشع المستثمرين ورجال الأعمال الذين ينتمي إليهم في جمع الأموال وتحقيق الأرباح، ورغم ذلك لقي من الدعم ما لقيه، ومن المناصرين ما يدفع للتعجب!

من منظور آخر، لم أعجب من بشاعة الأمريكان وقبح صنائعهم؛ ذلك أنهم يستلهمون قوتهم من تلك الحضارة الآلية التي لا تخضع لضمير. ولا يمكن أن تنتج الحضارة المادية البغيضة التي لا قلب لها ولا ضمير عدلًا أو استقرارًا في العالم؛ ذلك أنها حضارة تأخذ ولا تعطي، وتجرح ولا تواسي. حضارة أنانية صغيرة مهما بدت من الخارج ضخمة ذات بريق وضجيج!

إنها حضارة زائفة؛ لأنها لم تقدم للإنسانية زادًا من الروحية، ولم تحاول رفع الآدمية عن قانون الوحوش. فأروني عدلًا واحدًا أقامه الأمريكان! أروني حقبة واحدة عاشت فيها الأرض دون احتلال أرض، أو تدمير بلاد، أو قتل أبرياء، أو سلب ممتلكات، أو انتهاك حقوق في وجود الأمريكان.

إن أولئك الذين اختاروا لأنفسهم طرق ذات شعب ومسالك، وذات منعرجات ودروب، ورضوا بالمفاوضة، والمحادثة، وجس النبض، واستطلاع الآراء، ورضخوا للديبلوماسية الناعمة الرقيقة، والكلمات الرفيقة

الظريفة، وصـبروا على الانتظار الذي لا ينتهي، والاسـتجداء الذي لا ينبغي، ورحبوا بالمؤتمرات الحافلة والموائد المسـتديرة، وأبوا أن يشـاهدوا الوجه الحقيقي خلف القناع - هم بحق مصـرون على أن يقبعوا في دائرة الغافلين والخادعين!!!

ولكن ما تملكه الأمة من الرصيد الروحي، ومن ميراث السلف القديم، لن يسمح بهذه المذلة وهذا الهوان، وسـيدفع لرفض إملاءات لغة العبيد! ولا عجب أن يتهم هؤلاء الذين يتمتعون بمثل هذا الرصيد الروحي وميراث السـلف القديم، يتهمون بالإرهاب ويحارَبون ويسـتهدَفون ويحاصَـرون ويُعادُون! ولكن حسبهم الله لا يضرهم كيد الكافرين!

فأيها العقلاء، لن يقيم نظام أمريكا عدلًا في الأرض، ولن يقيم هذا العدل إلا المسلمون الذين يخشون الله ويعبدونه كأنهم يرونه، وأما دون ذلك فحديث نفس وأضغاث أحلام.

خلاصاتي لم تنتهش، إلا أنه يجب عليّ أن أتوقف عند حد معين، فهذه سنة في الحياة!

خاتمة المشهد الحقيقي لأمريكا التي رأيت

كيف أختم تفاصيل حياة كاملة قضيتها بين قوم كافرين؟! كيف أوقع نهاية قصة لا تزال تضخ الخلاصات وتوثق النتائج وتحرر المفاهيم الحياتية بشكل متواتر متين؟! كيف يمكن أن نصل إلى حد نهائي في حين أن قضيتنا مع الأمريكان لا نهاية لها تتجلى في الأفق؟! كيف يمكن أن أصل إلى شط الختام ولا زال في القلب الكثير من الإلمام؟

ليس بِدعًا من القول إن الكاتب لا يخشى من كتابة خاتمة ما، كخشيته من خاتمته ذاته؛ ذلك أن الخواتيم دائمًا هي خلاصات البشر، ودليل حسن العمل أو سوئه والعياذ بالله.

لا زلت أذكر تلك السماء، حين تحولت زرقتها فجأة في وقت عصر إلى سواد كالح، لقد كان السواد مخيفًا لدرجة أن الظلام كسى كل البيوت، ولم يعد هناك من رؤية والساعة لا تزال عصرًا!

خشيت كثيرًا، وأدركت أن العذاب قد يحل في أي حين. ولكن كيف الفرار وأرض المسلمين تبعد الأميال والأميال ولا بد من قطع المحيط ؟!

حينها أقسمت ألا أبقى فى أرض يتوعدها غضب الإله فى كل حين، وأشاهد أماراته۞ وليتنى أراهم يتعظون!

فمن لم يذكر الله من المسلمين في ذلك اليوم ؟! حتى الغافلون؛ لقد خشي الجميع غضبة الإله!

في الواقع لم تكن المرة الأولى التي أشاهد فيها أمارات الغضب الإلهي، وفي كل مرة كنت أقول يا ويل نفسي أي مصير ينتظرني ولعنات المسلمين المستضعفين في الأرض، ترفع لرب يمهل ولا يهمل، كلها تلعن الأمريكان؟!

وإن حلّ سخط الله بقوم لم ينجُ بينهم أحد، لقد كان هذا ما يشغل فكري؛ ذلك أن سنن الربّ لا تحابي أحدًا، وأن الظلم إذا بلغ مداه، فلا تسأل عن موعد العقاب ... هذا حال الأمم الظالمة الأولى والتي تلتها إلى يومنا هذا.

لا أنكر أني اشتقت لشجر الزيتون ورائحة الياسمين وهبات النسيم عند تلال بلدي، وكل شبر من أرضها يروي قصص أقوام من قبلنا، تعانقه ذكريات التضحية والفداء، ويفوح منه أريج الانتصارات بعد الامتحان، حتى إني لأكاد أسمع وقع حوافر الخيل في انسجام، وتكبيرات صاعدة بابتهاج.

ولا أبالغ إن قلت إن لذة الطعام في الشـــام كانت عندي تفوق كل لذات المطاعم الراقية التي دخلتها أو أكلت فيها! وقس على هذا حال كل المتع الدنيوية، فلعلها البركة، أو قل الحنين!

لم تسـلبني الحياة الغربية شـيئًا واحدًا، بل أشـياء كثيرة، وجعلتني أعيش الغربة بأقصـى أحوالها. هناك يكون المرء كالتائه يبحث عن حبل يربطه بالسماء، فلا يجد نفسـه إلا مُنيبًا لخالقه، شـديد الإقبال عليه؛ هذا إن منّ الله عليه بالهداية وأرشـده لسـبيل الخلاص. ولقد شـاهدت الكثير من نماذج الشـباب المسـلم الذي لا يعرف للالتزام طريقًا، ولكنه بوقع الصـــدمة مما عايشـــه في أمريكا تحول بين يوم وليلة لطالب علم مجتهـد، وأطلق لحيتـه، وبـدت ملامح الحيـاء والإيمـان تنير محيـاه! نعم هنـاك وجـد الكثير من المسلمين ربهم! لأنهم أدركوا أن ما يعيشه الأمريكان دليل قاطع على أن الإسلام هو الدين الحق!

كثيرون خرجوا من أمريكا غير ما دخلوا، صحيح أن منهم من خسر دينه ودنياه، ولكن الأغلبية

حنت لحضن الإسلام وطمأنينة التوحيد وربوع الإيمان.

وكان هذا كافيًا بالنسبة لي كي انعطف انعطافة جادة في حياتي، وأن أتخذ قرارات مصيرية في الرحيل من أرض فيها الكفر قد بلغ منتهاه، والظلم لا يزال يتأجج دخانه في السـماء، وإن كنت وصـلت لمرحلة مغرية لكل مغترب، فإن الشـهادات العليا مهما كانت مهمة لن تخدم بلدي ولا أمتي، بل سـأصـبح مجرد طوب بناء يبني عليه الأمريكان مجد أمتهم.

أوليسـت أمتي أولى بالبذل من هؤلاء الذين كادوا يقضون على أحلامنا؟ أوليست أمتي أولى بالجهد من هؤلاء الذي استنزفوا طاقاتنا؟ لأجل ماذا؟ لأجل أمتهم هم ومستقبلهم ومجدهم وحدهم!

لا أريـد أن أكون أَمَـة أجيرة في ديـار الكفر، أعمل وأتكبد الصـــعاب لأدفع الضـــرائب، ثم أشـــاهد أهلي وإخواني يُقتَلون برصاص دفعت منه سنتًا واحدًا!

أي ضـمير سـيتحمل هذا الظلم؟ وأنا أرى فلسـطين تغتصَـب ويقتَل أبناؤها بدم بارد، ثم أسـمع المعلق الأمريكي يتحدث عن الفلسطينيين كإرهابيين! وكذا حال الأفغان والعراقيين والسوريين وكل بلاد أهان قدسيتها جنود سام!

لا كرامة لي إن قبلت العيش في بلد أجادل الليل والنهار كي يقبلوا فكرة حجابي أو صـومي أو صـلاتي، وليتهم يقبلون!

فى بلد للعارية حق العرى۞ وتحرم المحتشمة حق الستر! ثم يزعمون الحريات!

في بلد يخيرك بين هويتك وأصالتك وعقيدتك، وبين عيشتهم المهلكة واندماج لن يكون أبدًا!

إننا كمسلمين لا نحمل إلا هذا الدين في قلوب مثقلة بالأمانات، إما أن نكون أهلًا لحمله أو ألا نكون، ولن يكون الأمريكي الكافر أفضل منا همة في حفظ أمته؛ ذلك أننا أمة خير مرسل للبشر، محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم-. والله لو قضينا عمرنا نأكل الزيت والخبز ولكننا نسهر على بناء مجد أمتنا، لكانت الحياة في عيني ألذ من أرقى مستوى حياة في أمريكا يصله بشر!

ذلك أن العيش لأجل هدف سامق، لأجل إسلام عظيم، لأجل نجدة أمة تدمي، لأجل نصرة الثكالى والمساكين واليتامى والمظلومين، لهو أعز عندنا من أن نخدم قاتلًا مجرمًا يتمسح بالحريات والحضارة والرقي، وهو يعتلي جبلًا من الجماجم، بل سيبقى مجرمًا مهما تأزر بألوان الثياب وتوارى خلف أنواع الأقنعة.

إنه لمؤلم بعمق، ويدفع بالأسى للقلب، حين نرى بعضهم لا زال أسير الإعجاب بالأمريكان، وليتهم بحثوا عن شهادات المجربين، الذين انغمسوا في أمريكا فخرجوا منها يقتلهم الندم وتحييهم التوبة والإنابة!

وقد عرفت من كان يبجلهم لدرجة العبادة، بل ويحسبهم خير أمة أخرجت للناس، وحين عايشهم وانسلخ من دينه وتشبع من حضارتهم الزائفة، شعر بالاختناق ولم يستطع أن يكمل المشوار. لقد عرف أنه مجرد تمثيل، وأن هؤلاء لم يكونوا أهلًا لإعجابه، فرجع رويدًا إلى هويته وأصالته وعقيدته، وهو يذرف الدمع على عمر أضاعه في لهث خلف سراب لم يجنِ منه إلا الندم!

لقد اخترت أن أوجه كلمة لكل من لا زال يعيش في أمريكا، في هذه الحقبة المؤلمة: نعم، أعلم أن منكم من اضطر للعيش هناك كرهًا، ولكن اختر لنفسك خاتمة تطيب لها النفوس، واخرج من منظومة الاستعباد البشري التي تنظر إليك كآلة منتجة لا غير. ابحث لنفسك عن مخرج، وإن قل مكسبه المادي، فوالله إن صوت الآذان في أذنك لهو خير من كثير مما تجمع! ثم هناك الكثير لتقدمه لمن يستحق فعلًا، لا من يخدعك.

أما من كبلته الظروف وعجز عن الخروج، فلا أقلَّ من أن تساهم في نصرة أمتك وبناء مجدها من جديد، من المشاركة في حركة النهضة بكل ما تملك، وأن تعيش بقلبك وروحك عند أبواب الإسلام؛ لعلك تعذر! فمعارك الأمة مشتعلة في كل الجبهات، من معركة الوعي إلى معركة التحرير، فاختر لنفسك الثغر المناسب.

أما من خرج ومنّ الله عليه بالهروب من براثن الأمريكان، فإياك والانغماس في مستنقع الدنيا واللهث خلف ملذاتها، بل قد وهبك الله خبرة وتجربة وربما أكثر، فوظف طاقاتك في سبيل ربك، وإياك والتخلف عن ركب العاملين لنهضة الأمة، بكلِّك، بإخلاصك، ثم لا تستهن بما تقدم؛ فرب كلمة ألهمت قلبًا، ورب دينار أطعم جائعًا، ورب همة أحيت أمة!

مضطرة أن أوقف سيل الكلمات، وإن كنت حين ألتفت إلى الوراء أجدني لم أوفِ هذا الكتاب حقه، ولكن حسبي أنني نظمت جهدي لينضم لصفحات سيد قطب -رحمه الله تعالى- لعلني أرسم المشهد الحقيقي "لأمريكا التي رأيت"، وتصبح الشهادة شهادتين؛ فتثقل في ميزان الحكم.

لا زلت أتذكر كلمات قطب وهو يصف تلك الأرض، لكنني اليوم بعد كل الفارق الزمني أجدني أصفها بأشد من وصفه ذاك! ذلك أن الظلم حين يزداد له مآلات، والتمادي حين يتضاعف له مضاعفات. ولو أن قطب عاش في عصرنا اليوم ووصف أمريكا، فلا أخاله كان سيستعمل إلا أشد العبارات تعتصرها الآلام، وأقسى الأوصاف تؤزها الأحزان وصرخات المظلومين والآهات.

لأن ما وصل له الأمريكان اليوم من كبر وظلم في الأرض لهو بحق من أمارات السقوط، وإنني والله لأراه قريبًا بإذن الله؛ ذلك أن ما يحدث في هذه الأيام من اختلاف وانقسام في أمريكا في داخلها، وبين حلفائها، فضلًا عن ضعف واضح في قوى الهيمنة الأمريكية وبروز المنافسين بلا خشية، يدعو للاستبشار. وإن كنت أتمنى أن نشاهد آية سقوط أمريكا الدولة الظالمة، فإني في ذات الوقت أريد أن نكون قد أعددنا وجمعنا ما يؤهلنا لأن نكون الأمة المستعمَلة، التي ستقدم للعالم حضارة ماجدة عظيمة عادلة.

وحتى نحقق ذلك، فلابد أن نقدم كل ما نملك، لا نصفه ولا ربعه، بل كل ما نملكه من طاقات وجهود ومحبة لهذا الدين؛ فإن لم نُخلِص في عطائنا وتضحياتنا فلن نقدم شيئًا، ولن نغير واقعًا. لقد كان الفيتناميون كفارًا، ولكن أيقظتهم القومية، وبذلوا أنفسهم في سبيل إعادة بناء بلادهم التي حطمها الأمريكان، وقد نجحوا في تحقيق الكثير من البناء والنهضة، مع ألم عميق في كل مرة يذكر فيها الأمريكان.

لقد أخبرتني الدكتورة فونغ، وكانت طبيبة فيتنامية تعمل في المهجر لأجل جمع المال وإرساله للفيتنام، أنها أحد سبعة أطباء في عائلتها؛ كل واحد منهم هاجر لبلد آخر حتى يعمل ويجمع المال ويرسله لبناء الفيتنام! وحتى تحسن الجمع كانت حياتها زاهدة، أكلها أكل فقراء، وملابسها تكاد تهترئ! ولكنها طبيبة من أمهر الأطباء تحمل في قلبها همّ آلام بلادها!

أما نحن، فآلامنا أكبر من حجم آلام الفيتناميين، ونحمل عقيدة ورصيدًا روحيًا أعظم مما يحمله الفيتناميون، فهل ننتظر أداء نجاحُه أقلُّ؟ بل لا بد أن يكون نجاحنا بحجم معاناتنا وحجم قتلانا وجرحانا وكل نفس متوجعة!

لنستعن بالله ولا نعجز. لنبذل ما نقدر، ثم لنستبشر بمعية الله وفضله. لنرتقِ فوق ماديات الأرض، وإن كنا في أضعف ظرف حتى يرفعنا الله بقوته وقدرته، ومن أعذر عند ربه فلا عتب!

الحديث عن أمريكا يسحبنا تلقائيًا للحديث عن أمة الإسلام؛ ذلك أنها لا زلت تمثل العدو الأول لنا، والتحدي الأكبر لنهوضنا، فإن تخلصنا من حبالها سنعرف طعم الحرية، وسنكسر أغلال الخنوع، وسنتنسم عبق الريادة من جديد!

ومن يتجاوز عقبة الأمريكان فلن ترهقه عقبة أخرى في المسير! فاللهم لا تجعل للأمريكان علينا سبيلًا، ولا لبلادنا طريقًا، ولا على أمتنا تأثيرًا، ولا لنهضتنا تضعيفًا! والحمد لله على نعمة الإيمان والهداية والاستعمال، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

ليلى حمدان.

المصادر

١. عالم ما بعد أمريكا، فريد زكريا
٢. عالم ما بعد القطبية الأحادية الأمريكية: دراسة في مستقبل النظام السياسي الدولي
٣. ستيفن والت، ناشيونال إنترست
٤. النظام الدولي الجديد،٢٠١٧، واشنطن بوست
٥. خريطة توازن النظام الدولي وكيفية فهم الصراعات
٦. كيف تهيمن الولايات المتحدة على العالم
٧. حرب طرابلس-أمريكا
٨. هزيمة وإذلال أمريكا على يد الخلافة العثمانية في "شواطئ طرابلس"